
مختارات ميريت
حلمى النمنم
رسائل الشيخ
على يوسف
وصفية السادات
ميريت للنشر والمعلومات

حلمى النمنم

على يوسف وصفية السادات

رسائل الحب ومعركة الزواج

ميريت للنشر والمعلومات
القاهرة ٢٠٠١

على يوسف وصفية السادات

المؤلف: حلمى النمنم

الطبعة الأولى، ٢٠٠٢

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٥١٥٠٠ (٢٠٢)

merit56 @ hotmail. com

المدير العام: محمد هاشم

الغلاف: أحمد اللباد

رقم الإيداع: ٢٠٠١/٢٠٥٢

الترقيم الدولى: 977-5938-60-0

الفهرس



مقدمة

هى قصة حب مثل عشرات ومئات القصص التى تولد كل لحظة. وتجربة الحب على غير العديد من التجارب الشعورية والعاطفية التى يمر بها الإنسان، يولد الحب بسيطا وصغيرا.. ربما بنظرة عابرة أو بابتسامة سريعة وكلمة بسيطة، ثم يكبر الحب وينمو ويتسع يوما بعد يوم إن كان صادقا وحقيقيا، وقد تسير تجربة الحب بهدوء وبلا عقبات وبلا اعتراضات، وربما تعرضت لمتاعب ومصاعب وموانع بل ومحرمات ، وقد تقضى عليها وتتدها تلك الموانع، وربما زادتها قوة وصلابة وأعطتها الاستمرار والتواصل.. وهكذا كانت التجارب التى حفظها التاريخ ورددتها مسامع الأجيال، عنترة ابن شداد وعبلة ابنة عمه، قيس بن الملوح وليلى العامرية، ابن زيدون وولادة بنت المستكفى وغيرها وغيرها.

ويمكن أن نضيف إلى تلك القصص قصة الشيخ على يوسف وصفية السادات.

وإذا احتكمنا إلى الكثير من المعايير الموضوعية التى كانت تحكم المجتمع المصرى منذ قرن بالتمام والكمال؛ فما كان لهذه القصة أن تنشأ أو تقع من الأساس. هو رجل متزوج، صحفى معروف ومشهور، له صلاته السياسية العميقة مع حاكم البلاد الخديو عباس حلمى، ومعروف جيدا لدى السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين، وله خصوم سياسيون يبحثون له عن أى خطأ حتى لو كان صغيرا، ومن ثم كان عليه بمعايير الحذر والحصافة السياسية أن يتجنب ما يجلب عليه مؤاخذة الخصوم الذين يتربصون ويريدون التشهير به أو الانتقام منه.

وبعيداً عن الجانب السياسى والصحفى فقد جاء من قرية بسيطة فى سوهاج، من أسرة فقيرة مثل معظم الأسر المصرية آنذاك، ليس فى عائلته "عرق" تركى أو شركسى يزهو به ، بل هو فى النهاية "فلاح" ، وهو أيضا لم يتم تعليمه بالأزهر، فلم يحصل على "العالمية" التى كانت تضمن له الانخراط فى فئة العلماء والمعممين، وتعطيه وجاهة اجتماعية تغنيه عن عراقة الحسب وجاه النسب، صحيح أن شهرته الصحفية قد غطت جوانب "الضعف الاجتماعى" هذه ، لكن ساعة الجد، وحين يتم التفتيش فى الملفات ويبدأ التنابز والمكايدة يبرز كل ذلك على السطح، ولا يكون هناك سواه.

أما هى .. صفية السادات، ابنة الشيخ عبد الخالق السادات، حفيد السيد أبى الأنوار السادات الذى عاصر حملة نابليون على مصر وصعود محمد على إلى حكم مصر. أسرة تضارع بل وتفوق من هذه الناحية الأسرة العلوية ، أيام على يوسف كانت الأسرة العلوية على وشك أن تتم قرنا من عمرها،

بينما كانت أسرة السادات قد اقتربت من ثمانية قرون.. وكان الشيخ عبد الخالق يمتلك الكثير من الأطيان والعقارات.. ولذا فحين ترتبط ابنته فالمتوقع أن ترتبط بأحد أفراد أسرة من تلك الأسر الشبيهة بأسرة السادات، وليست أسرة بسيطة من قرية "بلصفورة" فى سوهاج".

لكنه الحب .. الذى يتدخل بالمصادفة البحتة ليسقط كل الحواجز الاجتماعية والمحاذير السياسية ومعايير الحسب والنسب والجاه. ويبقى على عنصر الاختيار الشخصى ورغبة كل طرف فى الآخر وتمسكه به وحرصه عليه.. وهكذا كان "الحب" بين على وصفية ، ونما بينهما وازدادت الأشواق واللهفة والاحتياج ولم يكن الاتصال سهلا وميسوراً كما هو الآن بين المحبين، فقامت الرسائل الغرامية بدور رسول الحب وحامل المشاعر والعواطف.. ثم تطور الحب إلى الخطبة وعند إتمام الزواج برزت المعايير الاجتماعية وموازين الحسب والنسب والجاه.. وعرف المجتمع المصرى معركة قاسية وشرسة، اختلط فيها نبل المشاعر وصدق العواطف مع النفاق الاجتماعى، وانتصر اختيار المشاعر والعواطف فى نهاية الأمر. ورغم مرور قرن من الزمان على ميلاد تلك القصة، فإن بعض أسرارها ومواقفها لا تزال صالحة لأن نقرأها اليوم ونطالعها .. أما الرسائل العاطفية التى حملت تلك المشاعر، فهى تعلن وتنشر للمرة الأولى.



وقائع الخطوبة والزواج والتفريق

ثم الزواج



في صيف سنة ١٩٠٤ كان كل شيئ هادئاً في القاهرة. الخديو عباس حلمي وأعضاء حكومته يديرون البلاد من الإسكندرية على شاطئ البحر المتوسط، حيث لا يحتملون حرارة صيف القاهرة.

المندوب السامي الإنجليزي والحاكم الفعلي للبلاد لورد كرومر عادة ما يسافر خارج مصر في الصيف أيضا، فتخف قبضته قليلاً وتتنفس البلاد الصعداء بعض الشيئ، وفي تلك الفترة كان الصراع بين الخديو واللورد قد بدأت تخف حدته، واتجهت الأمور بينهما إلى نوع من المهادنة.. وهكذا كانت القاهرة تمر بأيام خمول حتى انتصف شهر يوليو ١٩٠٤ حيث بدأت مصر كلها تهتز على صوت انفجار أخذ يزداد قوة واتساعا يوما بعد يوم، وزاد من حرارة الصيف وأصاب الجميع بالقلق والأرق.

بدأ الانفجار بخبر صغير في جريدة المقطم - عدد الجمعة ١٥ يوليو - يقول إنه بعد ظهر الخميس - ١٤ يوليو - عقد قران الشيخ علي يوسف على إحدى كريمات الشيخ عبد الخالق السادات. يوم الجمعة لم تكن جريدة "المؤيد" تصدر، وكان صاحبها ورئيس تحريرها هو الشيخ علي يوسف نفسه وفي اليوم التالي مباشرة - السبت ١٦ يوليو - نشر "المؤيد" الخبر في باب "حوادث محلية". جاء الخبر على النحو التالي "جرى بعد ظهر يوم الخميس الماضي عقد قران صاحب هذه الجريدة بإحدى كريمات حضرة صاحب الفضيلة الحسيب النسيب السيد عبد الخالق السادات في حفلة قاصرة على بعض

العلماء والأخصاء ، وقصدت العروس الكريمة بعدئذ المنزل المعد لها فى جهة الظاهر حيث تمت رسوم القران.." .

ونلاحظ أن الخبر لم يشر إلى اسم العروس، فلم يكن مألوفا ولا مقبولاً أن يذكر اسم "كريمات العائلات" والأسر على الملأ، ومضمون الخبر يوحى أن الزواج تم كأى زواج عادى، وأنه لم يقم احتفال كبير بهذه المناسبة ، بل كان احتفالاً ضيقاً واقتصر على الأقارب "الأخصاء" وعدد من علماء البلاد كما يليق بزفاف صاحب المؤيد وابنة الشيخ السادات.. ولم يعين خبر المؤيد اسم واحد من الحضور، ولا مكان عقد القران ، وحاول الخبر أن يبرز إعداد منزل خاص للعروس فى حى الظاهر، وهو آنئذ واحد من أحياء القاهرة الراقية.

لم يكن أمر الزواج بسيطاً وهادئا كما يوحى خبر "المقطم" ومن بعده خبر "المؤيد"، ففى اليوم التالى مباشرة لنشر خبر المؤيد، نشر "الأهرام" و"اللواء" بيانا من الشيخ السادات – الأحد ١٧ يوليو – تعليقا على ما نشر بالمقطم والمؤيد جاء فيه: "إنه قد صار عقد قران كريمتنا وتأهلها بصاحب جريدة المؤيد. وحيث إن ما ورد بهما من حضور العلماء والأخصاء الموهم أن ذلك بإطلاعنا ورضانا مع أن ذلك محض اختلاق، لأن ذلك كان بمنزل السيد محمد توفيق البكرى بدون علمنا ورضانا، ولذلك أبلغنا جهات الاختصاص".

وقال الشيخ السادات للأهرام "صار إشعار جهات الاختصاص بذلك وسترفع الدعوى الشرعية غداً بطلب التفريق وما يلزم.

وجهات الاختصاص هنا هى النيابة العامة، حيث قدم الشيخ السادات بلاغاً يتهم على يوسف بأنه اختطف ابنته، ولم تجد النيابة ما يؤيد هذه البلاغ، حيث إن عقد الزواج تم بالشكل الشرعى والرسمى، ووقعه مأذون وحضره شاهدان ومن ثم حفظ البلاغ.

وبدأت الصورة تتكشف أكثر، فقد نشر الأهرام مع بيان الشيخ السادات معلومات أكثر على لسان السادات يقول "على ما علمت من السيد توفيق البكرى أنه - على يوسف - حضر بمنزل السيد البكرى وأجرى العقد بدون علمى ورضاى وعلم أحد من الناس، بل إنه لم يُعلم أنه حضر ذلك العقد شخص من الأشخاص".

لم يكن السيد توفيق البكرى مجرد عميد بيت السادة البكرية فى مصر فقط، ولكن كان زوج ابنة الشيخ السادات الكبرى "حفيظة" ، أى أن عقد القران تم فى أحد بيوت الأسرة ، والحقيقة أن الشيخ السادات ما كان له أن يفاجأ ، فقد نشرت جريدة اللواء - لسان حال الحزب الوطنى ورئيس تحريرها هو الزعيم مصطفى كامل - فى عدد ٢٠ يوليو رسالة وصلتها، ولم تنشر اسم صاحبها واكتفت بالقول "الإمضاء محفوظ"، جاء فى الرسالة أن مفاوضات طويلة تمت بين على يوسف والشيخ السادات لإتمام الزواج، كان على يوسف قد خطب منه ابنته، لكن السادات كان يتعلل بأن الوقت غير مناسب، وإن لم يفسخ الخطبة. وبعد هذه المحاولات تقول الرسالة ".. عزم أصحاب الشأن فيه أن يتموه بلا توقف على أمر فضيلة السيد السادات ،

وأن يعقدوه فى بيت آخر، فلما علم سماحة السيد البكرى بادر وأخبر السيد السادات به ونصحه بأن يحسم هذه المسألة بلا تردد إما بمنع أو قبول ، ثم قابله مرة أخرى وكلمه بهذا المعنى وقال إنه بلغه أنه يراد أن يكون العقد فى منزله، فإذا لم يحتط لمنع ذلك وحضروا عنده لا يمكن أنه يأباه حفظا لكرامة السيد".

وواصلت الرسالة القول إن الشيخ البكرى لم يتوقف عند هذا الحد ولكن "أرسل له بعد أيام الأستاذ الشيخ "محمد راضى" يشرح له المسألة بهذا التفصيل، ولكن يظهر أن السيد السادات كان لا يصدق ما يقال له، فلم يعطه ما يستحق من الأهمية..".

ونشر الأهرام "فى نفس اليوم - ٢٠ يوليو - أن الشيخ السادات رفع بالفعل دعوى قضائية طلب فيها التفريق بين كريمته والشيخ على يوسف. ووصف الأهرام الزواج بأنه تم "خلسة دون رضا أهلها"، وقال الأهرام إنه إذا حكم لصالح السادات فإن على يوسف قد يواجه قضية جنائية بتهمة اختطاف ابنه السادات.

تحدد اليوم التالى مباشرة - ٢١ يوليو - لنظر القضية أمام المحكمة الشرعية: فى صباح نفس اليوم نشر المؤيد كلمة مطولة على عمود بعنوان "مسئلتنا والسيد السادات.." انطوت الكلمة على تقدير رفيع من على يوسف للسيد السادات، وأمنياته بأن يتوقف الأمر عند هذا الحد، ويرجو رضا حميه عن الزواج.

عقدت المحكمة برئاسة الشيخ أحمد أبو خطوة، ونقلت الصحف ما جرى فيها، وزادت "اللواء" على الوصف بالقول

".. علمنا من طريق آخر أن المحكمة الشرعية تجرى تحقيقا دقيقا مع المأذون والشهود والشيخ حسن السقا خطيب الأزهر وهو الوكيل عن المعقود عليها حيث قيل إن العقد لم يستوف شروطه الشرعية والنظامات الإدارية.." وأعادت اللواء التذكير بما سبق للأهرام أن نوه به وهو أنه إذا حكم لصالح السيد السادات كان وراء هذه القضية الشرعية قضية أخرى جنائية، أى إذا ثبت بطلان الزواج وحكم بالتفريق؛ سوف توجه إلى الشيخ على يوسف تهمة اختطاف فتاة والتغرير بها.

اجتمعت هيئة المحكمة وترافع فيها حضرة الشيخ عثمان الفندى عن السيد السادات، وترافع السيد حسن بك صبرى عن على يوسف – سيصبح رئيسا للوزراء فى عهد الملك فاروق وهناك شارع باسمه فى الزمالك – وفى الجلسة الأولى – كما هى العادة – أجلت هيئة المحكمة النظر فى القضية، ولكنها أصدرت قراراً مستعجلاً: "قررنا بالحيلولة بين الشيخ على يوسف والسيدة صفية المذكورة وتسليمها لأبيها ، وشملنا هذا القرار بالنفاذ المعجل.."

كانت هذه هى المرة الأولى التى يرد فيها ذكر اسم "صفية" ، فلم يعد يجوز الاكتفاء بالإشارة إليها بكنية "كريمة السادات".. فقد أصبحت طرفا أصيلاً فى القضية أمام المحكمة.

كان الرأى العام يتابع القضية باهتمام وشغف شديدين، وكما ذكرت اللواء والأهرام فإن قاعة المحكمة لم يكن فيها موضع لقدم. كانت القضية حتى صدور قرار المحكمة بالحيلولة بين الزوجين مجرد نزاع بين طرفين، رغم ما يمثله كل طرف

منهما اجتماعيا، ولكن بصدور هذا القرار لم تعد القضية كذلك، فسوف تتدخل فيها الأهواء والمواقف السياسية وتصفية الحسابات، وسوف تدخل فيها الأجهزة الحكومية والرسمية طرفا . باختصار خرجت القضية من يد الشيخ السادات وخصمه على يوسف وقرينته.

أرسلت المحكمة قرارها إلى الجهة الإدارية "المحافظة" للتنفيذ العاجل، وصدر الأهرام فى ٢٢ يوليو ليقول "صدر أمر المحافظة إلى الباشمعاون وإلى معاون آخر وإلى يوزباشى من ضباط البوليس و١٥ عسكريا بالذهاب إلى منزل العروس فى الظاهر لإنفاذ الحكم..".

تحركت هذه القوة الضخمة لانتزاع صفية من زوجها وتسليمها إلى والدها، وصلت القوة إلى منزل الظاهر، فأخبرهم "البواب" أن "الست صفية" خرجت من البيت، فعادت القوة من حيث أتت ولم ينفذ الحكم، وظهر لدى رجال المحافظة تصور جديد وهو أن تنفيذ حكم التفريق ليس من اختصاصهم. ونقلت "الأهرام" وجهة نظرهم الجديدة على النحو التالى "الأحكام الشرعية التى يجب على المحافظة إنفاذها هى أحكام النفقة والإطاعة للزوج، ولم تذكر نصوص الأوامر العالية وجود إنفاذ حكم الحيلولة بين الزوجين لوجود الشك بصحة زواجهما أو بالكفاءة".

ببساطة فإن المحافظة ليست هى المعنية ولا المختصة بتنفيذ قرار المحكمة!!

"صفية" نفسها حين علمت بقرار المحكمة، تركت بيت الظاهر. وقال الأهرام "عرفت العروس مآل الحكم فخرجت من

منزلها حتى لا تفاجأ بالقوة الإكراهية على العودة إلى بيت هجرته وأب عصته وعملت بإرادتها وهواها ودون إرادته.." لم تكتف صفية بذلك، ولكنها اتخذت موقفاً قانونياً كشف عن تمسكها بزوجها ورفضها لما يقوم به والدها، فقد استشكلت في القرار لأنها لم تعلم بالجلسة ولم تعلن بها ولا بالقضية ولا وكلت محاميا عنها، وأرسلت إلى وزير الحقانية بالإسكندرية برقية بهذا المعنى، هذا نصها..

سعادتلو أفندم ناظر الحقانية بسان استيفانو

أحتج بقوة على هذا القرار لأن الدعوى سمعت في غيابي وبلا أعذار سابقة، ولأنه قضى بتسليمي لوالدي الذي هو خصمي في الدعوى والذي أخشى من عواقب رجوعي إليه.

كما أرسلت صفية برقية أخرى إلى قاضي القضاة، الذي تتبعه المحكمة الشرعية التي تنظر القضية ، قالت فيها "إنني ما أخذت سعادة الشيخ علي يوسف زوجا لي إلا لعلمي أنه خير كفء لي حسبا ونسباً وصاحب ثروة ومقام كبير في الهيئة الاجتماعية. وحيث أني بالغة رشيدة مالكة لأمر نفسي فلي الحق المطلق أن أتزوج بمن أراه أهلاً لي من كل وجه، وهو الحق الذي أعطته الشريعة الإسلامية لكل مسلمة بالغة رشيدة. والحق الذي أعطاه الله لي لا يمكن أن يسلبه مني أحد.." وأضافت صفية في البرقية قائلة "اعلم يا مولاي أني راضية بزوجي، راغبة فيه، لا أختار سواه بديلا عنه مهما كان الأمر. وقد تزوجته بمحض رغبتي واختياري بإيجاب وقبول شرعيين ومهر قبضته كما هو مسمى في وثيقة العقد..".

وانتقدت صفية والدها فى هذه البرقية قائلة "والذى الذى طالما رد الأكفاء عن بناته ولم يرع حق الله فيهن..".

تحدد البرقيتان موقف صفية بوضوح فى القضية وهو:

- أولا: أنها بالغة رشيدة مسئولة عن نفسها، ولها الحق المطلق فى اختيار من تتزوجه - أى أنه ليس لوالدها الحق فى أن يختار لها.
- ثانيا: أن هذا الحق قررته الشريعة الإسلامية لكل مسلمة بالغة رشيدة، وليس لأحد - والدها أو المحكمة - أن يسلبها ما أعطاها الله.
- ثالثا: أنها لم تختر الشيخ على يوسف زوجا إلا بعد أن تيقنت من أنه كفء لها من جميع الوجوه.. الحسب والنسب والثروة والوضع الاجتماعى .
- رابعا: أنها راضية بهذا الاختيار ولن تتراجع عنه ولا تقبل له بديلا.
- خامسا: أنها طرف أصيل فى القضية، ومن ثم كان يجب أن تعلم بالجلسة ولا تنظر فى غيابها.
- سادسا: أن والدها هو الخصم فى القضية وما كان يجب أن يتم تسليمها لخصمها خاصة وأن القضية لم يفصل فيها بعد.

وسواء كانت هى التى كتبت البرقيتين أم أن المحامى هو الذى صاغهما، فإنهما وثيقتان، ولا نعرف قبلها فى تاريخنا الحديث، وثيقة تحتل توقيع سيدة تعبر فيها عن حقوقها بإزاء والدها وأسرتها وبإزاء المجتمع فى الاختيار لنفسها واتخاذ

قرارها، بأوضح وأنصع مما عبرت عنه صفية السادات فى هذا الموقف.

ابتعدت صفية عن بيت زوجها فى الظاهر.

أما الشيخ على يوسف نفسه فإنه - كما نشرت "اللواء" - سافر إلى الإسكندرية عقب صدور قرار المحكمة، والتقى بسعادة "بطرس باشا غالى" وزير الخارجية والنائب عن سعادة ناظر الحقانية. كان ناظر الحقانية "إبراهيم باشا فؤاد" فى رحلة إلى لندن وكان يتولى شئون الوزارة فى غيابه بطرس غالى.. وبحديث على يوسف مع بطرس غالى، أخذت القضية منحى جديداً فى الصحافة. فـ "اللواء" صوت الحزب الوطنى حصرت الأمر فى أن مسيحيا هو "بطرس غالى" يتدخل فى أمر من أمور "الشريعة الإسلامية". ورأى رجال المحكمة الشرعية أن الحقانية ومن ثم الحكومة تتدخل فى أمور القضاء الشرعى الذى يتبع فى النهاية قاضى القضاة فى استانبول - كانت مصر حتى ذلك الوقت ما تزال رسمياً - تتبع السيادة العثمانية.

وهكذا تداخلت الخيوط وصارت قضية الزواج تبحث بين القاهرة والإسكندرية ووصلت إلى استانبول ولندن حيث يوجد وزير الحقانية وأيضا لورد كرومر.

هنا خرج على يوسف عن صمته وتصوره أن الأمر يمكن أن تتم تسويته بهدوء وترضية الشيخ السادات، فكتب مقالاً مطولاً فى المؤيد بنفس العنوان الذى كتب به من قبل وهو "مسئلتنا والسيد السادات" .. حكى فى هذا المقال القصة مع السادات منذ بدايتها قال: "خطبنا من حضرة فضيلة السيد

السادات كريمته منذ أربع سنوات ، فأجاب بالقبول، وخاطبه فى هذا الشأن بين حين وآخر بعض الكبراء والعلماء والأعيان؛ فكان يردد جواب القبول ويرجئ وقت الإنفاذ إلى زمن أوفق.." وأضاف قائلا "ومنذ سنة وبضعة أشهر قدمت له جملة من المجوهرات باسم النشان (الشبكة) فقبلها وحفظها عنده إلى الآن، ثم بعد أسابيع قدمت له المهر على يد موظف كبير من رجال الحكومة؛ فقبله فى جمع من الناس على أنه مهر وحفظه عنده حتى هذه الساعة..".

لم يقف الأمر عند النشان والمهر بل يقول "وبعد هذا وذاك هاديته بما جرت عليه المهاداة به من الخاطبين فتفضل بقبول ذلك كما قبل المهر والنشان وغيرهما.." ويبدو أن على يوسف كان يسعى لاسترضاء السادات بشتى الطرق، يقول: "سافرنا إلى أوروبا فى العام الماضى فلزمت خطة سفره التى كانت تخالف خطتى المقررة من قبل، ليستريح ولو تعبت كما يليق بالصهر مع حم مثله، وعدنا من أوروبا فعدنا إلى طلب تحديد يوم العقد وعاد هو إلى المطل والتسويف مع الجواب الإيجابى لكل مخاطب له فى هذا الشأن".

اتجه على يوسف بعد ذلك فى المقال إلى الرد على منتقديه حول الطريقة التى أتم بها الزواج قائلا "والذين يرون أن العدول عن مصاهرته بعد ذلك التاريخ الطويل العريض كان لابد أن يعرض كريمته التى ارتبطنا معها برباط الخطبة، والتى أظهرت رغبة تامة فى أن لا تكون مثالاً ثانيا بعد ذلك المثال الذى يعرفه كل من سمع بقضايا حضرة عثمان بك أبى

زيد مع فضيلة والدها إلى السقوط فى مهواة اليأس، فكان علينا دين آخر من المروءة يعوض ما يمكن أن يكون قد فاتنا بالعدول عن تلك الطريقة المألوفة.." وينتهى إلى القول "بعد هذا كله وجدنا أنفسنا بين أمرين رجحنا أحدهما وأنفذنا العقد فى بيت أقرب قريب لبيت السادات." والعبارة الأخيرة تكشف عن أن السادات لم يكن يريد أن يتم الزواج ، وأنه كان يعول على أن ييأس على يوسف ويفسخ الخطبة، ولكن اليأس أدى إلى العكس وهو إتمام الزواج بالطريقة التى حدثت.

وعلق على يوسف فى مقاله على قرار القاضى بالقول ".. إننا وإن انتقدنا صدور القرار بالصفة التى صدر عليها؛ فإننا نعترف علنا بأن حضرة القاضى الفاضل الذى أصدره من أذكى رجال القضاء الشرعى وأعلمهم بوظيفته لا نرميه بتحامل ولا تحيز، ولكن ما صدر منه قد يحملنا على الظن بأنه كان مدفوعاً بعامل التأثر وانفعال الشعور الذى تلقى به كثيرون هذه الحادثة غير المألوفة، ممن لم يقفوا على دخائلها منا أو من غيرنا.

فى اليوم التالى مباشرة كتب على يوسف مقالا آخر تحت نفس العنوان "مسئلتنا والسيد السادات" .. هاجم فيها منتقديه ، والذين يتحدثون عن عدم كفاءته لمصاهرة السيد السادات، وحدد انعدام التكافؤ بحالات معينة ليس بينها حالته ، يقول "كأن تتزوج بخادم أو ذى حرفة دنيئة يعتبرها العرف خسيسة كصنعة الأحذية والدباغة والحياكة وأمثال هذه الحرف المنحطة، فإن حكم الشريعة الإسلامية الغراء فى ذلك أن العقد

يقع بـاطلا أو موقوفـا حتـى لا يلحـق العـار مـن لـم يـرض مـن الأولياء العاصبين بالرغم عنه.."، وهـذا يعنـى أن علـى يوسـف كان يتعامل بنفس المنطق الذى يتعامل به السـادات، فهـو يـرى أن هنـاك مهنـاً وحرفـاً منحطـة ليس بينهـا حرفتـه، وأن هنـاك أزواجاً لا يكونون أكفـاء لزوجـاتهم، وهـو ليس واحـداً منهـم!! ويتضح ذلك فى بقية المقال حيث يخاطب السادات مقارنا بينهما بـالقول "نحـن سـواء طبعـا فـى الإسـلام والحريـة. أمـا الشـرف فبالطريقة التى يمكنـك أن تثبتـه لنفسك؛ نسـتطيع نحـن ويظهـر للعالم أننا كلانا شريف حسينى علوى".

هذا عن الشرف أم عن الثراء فقـال "وأمـا الـثروة فبالطريقة التى نتوصل بها إلى بيان بسطة مالك نتوصل نحن . "واستكمل تفنيدهلدعـاوى السـادات قـائلا "وأمـا الحرفـة فكلانـا عضو فى الجمعية العمومية. أنا من قبل الأمـة وأنـت مـن قبـل الحكومة والأمة أصل والحكومة فرع".

اعتبر على يوسف عضوية "الجمعية العمومية" حرفـة، ولـم يقترب مـن حرفتـه الأساسية "الصحافـة" والتـى اعتبرهـا السادات مهنة غير محترمة، وبدا على يوسف وكأنه عاجز عن الدفاع عن مهنته أمام هجوم وازدراء السادات.

وخرجت اللواء لتعلن أن الرأى العام ينتقد الطرفين السـادات وعلـى يوسـف، حيث قـالت "وقد أصبـح انتقـاد هـذه المسئلة فى جميع الأنديـة شـاملاً لوجهيهـا لأنهـا مـن الضربـات المؤثرة على الأخلاق الاجتماعية. وأقل مـا فيهـا مـن المضـار فتح طريق جدير للفتيات اللاتى يحجم آباؤهن عـن التسـرع فـى

زواجهن عندما يتقدم لخطبتهن غير الأكفاء. وفى ذلك من الآلام للآباء ما يزيد أنينهم من حين إلى حين".

كل هذا الجدل وقرار المحكمة بالحيلولة بين الزوجين إلى حين الفصل فيها لم ينفذ بعد، وتاه الموضوع فى الإجراءات والروتين الحكومى، فبعد أن توصل المسئولون بالمحافظة إلى أن تنفيذ القرار ليس من اختصاصهم أرسلوا إلى نظارة الداخلية يسألون فى كيفية التنفيذ، والداخلية بدورها فوجئت بالقرار وبالسؤال، وهكذا أرسلت الداخلية تسأل الحقانية (العدل) والحقانية خاطبت ناظرها بالإسكندرية. ولما كان ناظر الحقانية فى لندن، فقد جاءهم الرد واضحاً بأن التنفيذ ليس من اختصاصهم ، لأنه لا يوجد نص قانونى بذلك.. ولم يجد قرار المحكمة من ينفذه . وانتقد الأهرام - ٢٧ يوليو - موقف المحافظة والحقانية بالقول "إذا كان النص غير موجود، فعدم وجوده لا يعد حجة معقولة لحفظ الحكم".

فى نفس اليوم - ٢٧ يوليو - كان مقرراً أن تنعقد المحكمة لنظر القضية، ولم يكن قرار الجلسة السابقة قد نفذ. انعقدت المحكمة بنفس أعضاء هيئتها، وفى بداية الجلسة أعلن القاضى الشيخ أحمد أبو خطوة أنه ينظر هذه القضية باسم قاضى القضاة "شخصيا والذى كان من المقرر أن يحضرها بنفسه ولكن ظروفا صحية طارئة منعته من ذلك، وأرسل قاضى القضاة إلى الشيخ أبو خطوة رسالة طلب فيها أن يتوقف عن نظر القضية، وأن تتوقف المحكمة عن نظر أى قضية أخرى إلى حين تنفيذ قرار الحيلولة. وعلى هذا أعلن أبو خطوة

"قررت إيقاف السير فى هذه القضيـة لأجل غير محدد وحتى ينتهى فضيلته مع جهة الإدارة فى ذلك".

كان معنـى هذا القرار أن المحكمـة قد أضربت عن العمل، وتعقـدت القضيـة بعد مـا تردد عن أن قـاضى القضـاة سوف يوقف العمل بكل المحـاكم مـا لم ينفذ قرار الحيلولـة.. وذكرت "اللواء" أن الهتافات عمت المحكمة حين أصدر القاضى قراره، وقالت أيضا "أكبرنا هذا الحادث لأنه يتعلق بـأهم قضيـة سيكون الحكم فيها قاعدة لنظام البيوت والعائلات وقاتلا لجرائـم العهر والتبذل ومخالفة الآداب القوميـة والعـادات العائليـة.." وأعادت اللواء انتقاد موقف بطرس غالى - القائم بعمل نـاظر الحقانية - فى القضية، بالقول "أكبرنـا هذا الحـادث العظيم لأن الذى رفع إليـه واحد من وزراء مصـر لا يدين بالإسـلام وقد عهد إليه بأعمال الحقانية وكان ينتظر من رجل سياسى مثله أن يقوم فى وجه الإدارة ويخطئ عملها".

ولم يفت "اللواء" أن تنوه بأن قاضى القضاة لا يخضـع للحكومة المصرية ولا للخديو نفسه، وليس للدولة المصريـة أى سلطان عليه بل هو يتبع السلطان العثمانى نفسه فى إسـتانبول". قالت "ومعلوم أن فضيلته فى مركزه الشرعى نائب عن جلالـة الخليفة الأعظم وهو مركز تؤيده الأمة بأسرهـا.. وقـالت أيضـا "ليست قضيـة رجل وامرأة بل قضيـة قطر برمتـه" وذهبت "اللواء" إلى أن عدم تنفيذ قرار المحكمة يعنى أن الإرادة الإلهيـة معطلة فى مصر، الأمر الذى استفز السـيد رشيد رضـا فخـرج لينتقد اللواء ويوبخ مصطفى كامل فى "المنار" بـالقول "لـو جـاز

أن تكون الإرادة معطلة لجاز أن تكون القدرة كذلك، لأن القدرة تتعلق بما تتعلق به الإرادة قطعا، لكن جريدة اللواء تجعل الإرادة الإلهية بمعنى الإرادة السلطانية . وذهب "الأهرام" - عدد ٢٨ يوليو - إلى القول "لم نطالع فى قانون ولا وقفنا فى دستور ولا عرفنا فى نظام أن لناظر الحقانية أن يوقف حكما صادرا من محكمة حرة مستقلة".

كانت "صفية السادات" فى تلك الأيام تقيم فى بيت الشيخ عبد القادر الرافعى أحد شيوخ الأزهر الكبار ، وتدخل على يوسف محاولا حل هذه المشكلة ، بأن أرسل برقية إلى زوجته يطلب فيها أن تعود إلى بيت والدها ، ويخبرها أن الشيخ الرافعى نفسه "يتكفل بايصالك إلى بيت أبيك وأخذ التعهد اللازم عليه أن لا يصيبك مكروه"، ونشر على يوسف نص البرقية إلى زوجته فى المؤيد ، كما أرسل برقية إلى الشيخ الرافعى يذكر له فيها ".. أشير عليها بالرجوع إلى بيت أبيها مختارة حلا للإشكال القائم بين الحكومة والمحكمة.." ومن جانبه وافق الشيخ الرافعى على أن يقوم بالمهمة ويذهب بصفية إلى بيت والدها، ويكون بذلك قد نفذ قرار القاضى ، وينتهى إضراب المحكمة لكن صفية السادات هى التى رفضت هذا الاقتراح، وتحدث إليها الشيخ الرافعى فى أن تقبل رأى زوجها، ثم تحدث إليها الشيخ حسونة النوادى - وكان من قبل شيخا للأزهر - وحدثها أيضا شيخ الأزهر، وكان ردها عليهم ".. توجهتم أنتم الأربعة قبل ذلك وأجابكم بقبول إقامتى فى منزلك - الشيخ الرافعى - ثم كتب للجرائد يكذب أنه رضى بإقامتى

وأنه لا يزال يطلبنى بالقوة العسكرية، فما شأن ضمانتكم عنده بعد ذلك.." ثم قالت "إن الموت أهون عندى من رجوعى لمنزل والد إن غضب لا يبالى بما يفعل".

وتأزمت المسألة أكثر وأكثر.. وبدا وكأن الأمور وصلت إلى نفق مسدود، فالمحكمة تصر على تنفيذ قرارها حرفيا، وصفية ترى أن العودة إلى منزل والدها دونه الموت..!!

ومع اشتداد الأزمة وإضراب المحكمة، كان لابد أن يحدث تدخل على أعلى مستوى، ومن الإسكندرية طلب الخديو عباس حلمى ملف القضية بكامله لدراسته، وجرت اتصالات بوزارة الخارجية البريطانية فى لندن للتباحث فى حل لتلك الأزمة، واتفق على أن تتدخل الحكومة لتحقيق حل وسط وهو أن تقبل المحكمة إقامة صفية فى بيت الشيخ عبد القادر الرافعى، وأن يعتبر ذلك تنفيذا للحكم بالحيلولة بين الزوجين انتظارا إلى أن تفصل المحكمة فى دعوى التفريق، ووصل إلى القاهرة من الإسكندرية نائب ناظر الحقانية "عثمان بك مرتضى" ومعه ناظر أقلام النظارة، ودعى إليه "الشيخ محمد بخيت" من المحكمة العليا، واتفق معه على أن تبقى صفية لدى الرافعى، وذهبوا بذلك إلى قاضى المحكمة الشيخ أبو خطوة وسعادة عبد الرحمن فودة المفتش الأول بالمحكمة واجتمعوا، وكما يقول أحمد شفيق باشا فى "مذكراته" قرروا تعديل قرار الحيلولة من ضرورة إرسالها عند والدها إلى إبقائها مع الحيلولة عند رجل مؤتمن، وحيث إن الشيخ الرافعى الذى هى

عنده – رجل مأمون، لهذا لم يروا مانعا من بقائها طرفه[1]..".

من الناحية الإجرانية اتفقوا على أن يقوم تنفيذ القرار وفقا لنص المادة ٩٣ من القانون والتى تجعل المحافظة ترجع إلى المحكمة نفسها وليس إلى نظارة الحقانية فى أمر التنفيذ.. وذهبوا إلى قاضى القضاة بهذا الاتفاق فوافق عليه، وانتهت الأزمة. وجرت جلسة عتاب بين عثمان بك مرتضى وأبو خطوة، وقال مرتضى إن ما نسب إلى الحقانية والحكومة من أنها ضد تنفيذ القرار، وأنه يجوز للمحافظة أن تنفذ أو لا تنفذ غير صحيح، وانتقد مرتضى المحكمة والقاضى وكذلك قاضى القضاة الذى اتخذ قراراً بالتوقف عن نظر القضايا بناء على روايات الصحف، فاعتذر أبو خطوة بأن المحكمة إنما فعلت ذلك مضطرة ومكرهة بعد أن تم تداول الأمر فى الصحافة.

وصفا الموقف بين المحكمة الشرعية والحكومة وعادت المحكمة إلى العمل. لكن الأزمة لم تكن قد انتهت بالنسبة للرأى العام فى مصر، حيث امتلأت القاهرة بشائعات عديدة ومختلفة، وقد وجدت هذه الشائعات طريقها إلى صفحات الصحف، مثلا تردد أن الشيخ على يوسف طلب تدخل الخديو عباس حلمى لصالحه فى القضية لدى المحكمة، فخرج "المؤيد" لينفى هذا الكلام برمته، جاء فى المؤيد "يقولون إن أعلى مقام فى مصر تدخل لأجله – على يوسف – وأكثر من التداخل،

(١) راجع أحمد شفيق باشا، "مذكراتى فى نصف قرن" الجزء الثالث. صفحة ٦١، الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب. سلسلة تاريخ المصريين / ١١٥.

ولكنهم يزعمون أنهم رفضوا هذا التداخل وأبوه..".

وخرجت "اللواء" أيضا لتنفى الإدعاء بتدخل الخديو فى القضية أو الإنجليز، وزادت فى أن "عصبة" الشيخ على يوسف نفسه هم الذين يروجون تلك المزاعم، للإيحاء بأن المحكمة ستنصفه وتحكم بصحة عقد الزواج، أو للتأثير على المحكمة الشرعية. وفى المقابل تردد أن الشيخ عبد الخالق السادات حين وجد الخديو ومن ورائه الحكومة فى انحياز تام للشيخ على وصفية، لجأ إلى ملك إنجلترا، الملك إدوارد، طالبا تدخله فى القضية لإنصافه بإعادة ابنته إليه وتفريقها عن زوجها، وكانت الشائعة قوية إلى حد أن الشيخ السادات، خرج لينفى تماما أن يكون قد طلب تدخل ملك الإنجليز فى قضيته، وأكد ثقته المتناهية فى أن المحكمة ستحكم بالحق، والحق هو ما يطلبه وما يريده!! ويرى فتحى رضوان أن الإنجليز هم الذين كانوا يحركون السادات لإحراج على يوسف والانتقام منه لموقفه المعادى فى "المؤيد" من احتلالهم مصر ولصداقته الحميمة والخديو عباس حلمى الذى يكره كرومر والاحتلال[1]، وقد يكون ذلك صحيحا خاصة وأن صفية لم تكن وحدها هى التى تركت المنزل فقد صحبتها - كما تروى السيدة بثينة على يوسف - شقيقتها "أسماء" التى عقد قرانها فى نفس الوقت ودون علم والدها من السيد عبد الحميد البكرى ابن شقيق السيد توفيق، ومع ذلك صمت السادات تماما عن أسماء.

(١) فتحى رضوان "دور العمائم فى تاريخ مصر الحديث". مجلة الدوحة - عدد فبراير ١٩٨٣.

وأخطر الشائعات تلك التى ترددت حول أن الشيخ على يوسف يتردد يومياً على زوجته فى منزل الشيخ الرافعى، وأنه يشاهد كل يوم فى آخر الليل فى طريقه إلى بيت الرافعى خفية، كما يشاهد عند خروجه - خفية أيضا - من ذلك المنزل عند الفجر أو فى الصباح الباكر، وقالت الشائعات إن على يوسف يرسل كل يوم خادما بالطعام والملابس من بيته إلى بيت الرافعى، وأخذت بعض الصحف تردد هذا الكلام الذى جاء برد فعل بالغ السوء على الشيخ الرافعى ، وكان معناه سينا فى نظر المجتمع، ووصل الأمر - كما ذكر الأهرام فى ٢٩ يوليو - "أن الآلاف من الأهالى قد اجتمعوا حول بيت الشيخ الرافعى ونددوا به وبقبوله هذا الأمر، مما أصابه بأضرار صحية ونفسية.." وقالت اللواء - ٣٠ يوليو - "أصيب الشيخ الرافعى باحتقان دموى فى الرأس.." ويبدو أن الجميع استشعر حرج موقف الرافعى، وأنه هو الذى أنقذ الموقف خاصة بعد إصرار المحكمة على قرارها، وإصرار صفية على أن لا تعود إلى منزل والدها كما تريد المحكمة خاصة أن الأمر لم يتوقف عند الشائعة، بل نتجت عنها وقائع جديدة، فقد كتب محامى السادات خطابا بما رددته الشائعة إلى الشيخ الرافعى نفسه، وهكذا صار الكلام "اتهاما رسميا" ، فاغتاظ الشيخ لذلك وثار كما وصف شفيق باشا[1]. وبدا وكأن الأزمة ستتجدد ثانية ، حين بلغت تلك الأمور مسامع صفية السادات وهى فى منزل الرافعى، حيث عزمت على أن تغادر منزله تجنبا لإحراجه والإساءة إليه.

(١) مذكراتى فى نصف قرن.. مرجع سابق.

وكتب الشيخ الرافعى إلى قاضى قضاة مصر يقول "همت السيدة صفية بالخروج من المنزل فدافعتها، ولكنها مصممة على الخروج متى تمكنت من ذلك. وبما أنه لا يمكننى إقامة الحيلولة، فأطلب من سماحة القاضى أخذها من منزلى.."
وأدرك الجميع خطورة ما يمكن أن يحدث لو خرجت صفية من منزل الرافعى، فهذا ببساطة يهدم اتفاق الحكومة مع المحكمة ، ويمنع تنفيذ قرار المحكمة، ويعوق سير القضية وسائر القضايا، لذا سارع الجميع، رجال المحكمة ورجال المحافظة والحقانية وأيضا الصحف إلى تطييب خاطر الشيخ الرافعى وتحيته والإشادة به، فقالت اللواء "هى أريحية يستحق لأجلها الشكر وأوفر الثناء.." أما المؤيد فنشر مقالا كتبه على يوسف بعنوان "علم الفضل والمروءة" والمقصود هنا هو الشيخ الرافعى، وامتلأ المقال بالثناء على الرافعى.

وبينما اشتد الثناء على الشيح الرافعى، زادت الصحف من حدة هجومها على الشيخ على يوسف، خاصة "اللواء" التى حملته مسئولية الأزمة برمتها، ونعته بأنه "يطمع فى المال والجمال، فهو يجب أن يطمع قبل كل شئ فى الشرف ويحترم العادات القومية وأن لا يجعل للشيطان عليه سلطانا..".

أخذت اللواء تنشر رسائل من قراء امتلأت هجوما على صاحب المؤيد، ومنها رسالة جاءت من الزقازيق بعث بها عبد الرحمن أباظة يخبر القراء أنه قد توقف عن قراءة "المؤيد" بعد أن خدع فى صاحبها وقال "خابرت صاحب المؤيد بالترفع عن الاشتراك بجريدته تشبها بغيرى من أهل الشهامة والشعور

الحى، لتخليه عن الخدمة العمومية واشتغاله بقضايا مآربه الخصوصية والجريدة مستمرة الورود . فكتبت له أخيرا، وهذا إعلان آخر لسعادته بذلك..".

واختار الأهرام الهجوم غير المباشر، حيث ندد - ٢٩ يوليو - بفكرة "الحرية" التى حاول البعض اعتبارها سندا لما قام به على يوسف وصفية السادات ، قال الأهرام "الحرية إذن فى بلاد الحرية ليست خلع العذار وإطلاق العنان ليفعل الإنسان ما شاء كما يريد أن يفهمنا قومنا.. بل إن الحرية هى أن تتمتع بحقوقك بلا معارض حتى الحد الذى تبتدئ عنده حقوق غيرك، فللأب حقوق على الابن لا تضيع، وللابن حقوق شخصية تستوفى بعد حقوق الأب".

ولم يفتح الأهرام باب النقاش حول حدود الحرية ومعناها وضوابطها، لكن اكتفى فقط بتلك الكلمة . أما "مصباح الشرق" التى كان يصدرها إبراهيم المويلحى فقد أطلقت على عام ١٩٠٤ اسم "عام الكفاء" للتهكم على الشيخ على يوسف، وكان ذلك انتقاما من هجوم سابق لعلى يوسف على "المويلحى".

كانت المؤيد فى موقف بالغ الصعوبة والحرج، أمام هذه الحملات المستمرة التى تشنها معظم الصحف ضد على يوسف، واكتفى المؤيد من جانبه بالرد على بعض ما يقال من اتهامات ضده، واتجه أيضا إلى مهاجمة الشيخ السادات، والتفتيش فى ملفاته القديمة ، ومنها واقعة ابنته الكبرى أسماء، يقول "لماذا هو عارض جهده وسعى كل السعى لعدم تنفيذ الحكم النهائى الذى أصدرته المحكمة الشرعية منذ سنوات

بلزوم طاعة كريمته السيدة المصونة أسماء لزوجها حضرة عثمان بك أبى زيد".

وكانت المؤيد قد وصفت قرار المحكمة الذى أحدث الأزمة بأنه "اشتمل على صيغة لا يوجد لها أثر فى لائحة المحاكم الشرعية".

* * *

بدأت جلسات المرافعة فى القضية، وأخذ كل طرف يشرح موقفه، حسن بك صبرى محاميا عن صفية وسيصبح فيما بعد نقيبا للمحامين الشرعيين وهناك شارع باسمه فى المبتديان الآن. عرض محامى على يوسف طلب الصلح على السادات وكما قال "حتى إذا قبله تجنبنا قول ما يقضى به الدفاع عما قد يمس بكرامته". ورفض محامى السادات هذا العرض.. وقد شهدت هذه الجلسات تجريحا للطرفين وصل إلى حد الإهانة البالغة فى الكثير من الأحيان، تحدث الفندى عن عراقة بيت السادات منذ ٨٠٠ سنة فى مقابل وضاعة أصل وحقارة نسب على يوسف، وإذا به يقول "إن عامة أهل القرى والأمصار فى هذه الديار أعاجم إلا من له نسب معروف كالسادة الوفائية.. "وهكذا وصم السيد المحامى معظم أهل مصر ووصفهم بالأعاجم ، قاصدا بذلك الحط من قدرهم، ثم تحدث المحامى تحديدا عن قرية "بلصفورة" ، وهى قرية صغيرة فى محافظة سوهاج بصعيد مصر ولد بها على يوسف، قال المحامى "إنه من قرية صغيرة تسمى بلصفورة كلها أعاجم" يقصد بذلك أنهم ليسوا من أصول عربية وليسوا من نسب

الحسن أو الحسين. وبدلاً من أن يرد محامى علي يوسف بأن السادة الوفائية وافدون على هذا البلد وعلى سكانه الأصلاء "المصريون" الذين يسميهم الفندى "أعاجم"، إذا به يرد بنفس منطق الخصم ليصيح أن موكله - علي يوسف - أصيل حسيب نسيب هو الآخر وأنه عضو فى نقابة الأشراف ، وكان علي يوسف قد انضم إلى تلك النقابة قبل سبع سنوات ، فى عام ١٨٩٧ وفى مدينة جرجا، لكن محامى السادات يطعن فى هذه العضوية ويطلب الشيخ "على الببلاوى" الذى كان نقيبا للأشراف حين انضم على يوسف إلى النقابة الذى أفاد بأنه ضم على يوسف بناء على ترشيح النقابة فى جرجا، فلا يعترف محامى السادات بهذا الضم ويصر على أن الخصم ليس حسيبا ولا نسيبا وأنه أعجمى.. فيرد عليه محامى على يوسف بأن السيد عبد الخالق السادات ليس أصيلاً فى بيت السادة الوفائية لأن جده المباشر كان من نسل إحدى الجوارى اللاتى لا يعرف لهن أصل، واستشهد على تلك الواقعة بترجمة الجبرتى فى "عجائب الآثار" لحياة الشيخ السادات الذى عاصر حملة نابليون بونابرت على مصر ويعتبر جد الشيخ عبد الخالق.

فيرد محامى السادات بطريقة أكثر سفها حيث يشير إلى أن أحد أجداد على يوسف اسمه "عبد النور" وهذا الاسم يتسمى به أقباط مصر وليس مسلموها، ويخلص من ذلك إلى أنه قبطى الأصل، ويضيف أن أحد أجداد على يوسف أيضا اسمه "شيخون" ويرى أن شيخون هذا هو بطرس ابن يوسف فى بلدة بلصفورة . وهكذا كانت المحاجاة فى قاعة المحكمة

على مسمع من حشود المواطنين الذين تابعوا وقائع القضية داخل المحكمة، والصحف تنقل كل هذا ولا تترك حرفا واحداً مما يقال!!

ويثير محامى على يوسف واقعة قبول السادات للخطبة وتلقى النشان "الشبكة" والمهر والهدايا ، فيرد محامى السادات بجسارة وثيقة "أما الوعد بالنكاح وقراءة الفاتحة بدون إجراء عقد شرعى بإيجاب وقبول فلا قيمة له شرعا" وقال محامى السادات أيضا إن الخديو قد تكلم ثلاث مرات مع موكله فى شأن إتمام الزواج لكن لم يوافق!! وأخذ المحامى يهاجم مهنة الصحافة واصفا اياها بالتدنى يقول "كيف لا تكون أدنى الحرف وهى عبارة عن الجاسوسية وكشف الأسرار".

وواصل "اللواء" مهاجمة على يوسف ونعته بأنه أقدم على "اقتناص بنات الأشراف ودخوله بها كما يدخل الزوج بزوجته بغير رضاء والدها وبلا علمه وبدون استعداد لذلك"، وشارك "الأهرام" اللواء فى مهاجمة على يوسف .

الطرف أن الذى رد على مهاجمى على يوسف وإن كان بأسلوب غير مباشر هو السيد رشيد رضا فى "المنار" ، فقد تساءل - عدد ٣٠ يوليو ١٩٠٤ - "إذا كانوا يغارون على أحكام الدين فلماذا يمدحون ويطرون الأعمال المجمع على تحريمها وكفر مستحلها ، كالمرقص الذى يكون فى قصر الأمير بين النساء والرجال مع الدعوة إلى شرب الخمر جهاراً".

ثم يخص رشيد رضا اللواء ومصطفى كامل تحديداً بالذكر حيث يقول ".. فلماذا قام زعيمهم صاحب جريدة اللواء

يندد بعمل محافظ مصر السابق عندما أراد التشديد على النساء المتهتكات فى الشوارع والأسواق".

فى نفس العدد نشر رشيد رضا بحثا فقهيا بعنوان "الأولياء والكفاءة فى الأزواج" تحدث فى فقرة منه عن قصة صاحب المؤيد قائلا بوضوح "إن العالم كفؤ لبيت الشريف والحسيب وإن كان نسبه وضيعا أو مجهولا لأن العلم أشرف الأشياء، فلا عار معه مطلقا"ويضيف قائلا "أما حكم هذه الكفاءة فهو وجوب تزويج الخاطب مع تحققها واعتبار الولى عاضلا للمخطوبة إذا امتنع من التزويج، ولها حينئذ أن تزوج نفسها من الكفؤ بدون رضاه عند الحنفية إن كانت رشيدة وليس له الاعتراض ولا طلب الفسخ، وعند غيرهم يرفع الأمر إلى القاضى فيأذن الولى البعيد بالتزويج إذا كان القريب هو العاضل أو يزوجها هو".

وفقا لهذا الرأى فإن السيدة صفية السادات لم تقع فى أى خطأ لأن مصر تتبع المذهب الحنفى. وبدلا من أن يستعين محامى "على يوسف" بهذا البحث وهذا المنطق فى الدفاع، إذا به ينساق وراء منطق السادات ومحاميه وأخذ يستعين بعدد من علماء الدين الذين شهدوا لموكله بالعلم والفضل والمواقف الوطنية مثل "قضية التلغراف"[1]. وحمل معه إلى قاعة المحكمة

(١) قضية التلغراف: جرت وقائعها سنة ١٨٩٦ وكانت مصر قد أرسلت حملة عسكرية إلى دنقلة بالسودان وقادها ضباط إنجليز، وأصدرت الحكومة قرارا كان وراءه "لورد كرومر"، بمنع إعطاء جريدة "المؤيد" أى أخبار أو معلومات عن الحملة، بينما تعطى المعلومات والبيانات كاملة للصحف المساندة للاحتلال خاصة "المقطم" والصحف الأجنبية.=

- كانت "المؤيد" هى الجريدة الوطنية الأولى التى يتابعها المصريون، وكانت الأكثر مناهضة للاحتلال البريطانى، ويبدو أن "كرومر" تصور أنه بحجب معلومات حملة دنقلة عن "المؤيد" سوف يضعفها ويفقدها جمهورها واهتمام القراء بها، لكن "على يوسف" تصرف كصحفى محترف، ورئيس تحرير قادر على أن يتجاوز العقبات التى توضع أمام جريدته، وتوصل إلى حل، حيث تمكن من الاتصال بمكتب تلغراف الأزبكية وكانت تصله البرقيات الخارجية ، وكانت الموظف الذى يتلقى البرقيات هو "توفيق أفندى كيرلس" وتلقى توفيق أفندى من سردار الحملة برقية موجهة إلى ناظر الحربية "باللغة الفرنسية وتضم ٥٦٦ كلمة بها كل شئ عن الحملة، وقضى توفيق أفندى سبع ساعات فى استقبال البرقية، وبعث بها إلى ناظر الحربية، حيث سلمت إلى جاويش بالوزارة وأرسلت فوراً إلى منزل الناظر الذى قرأها واحتفظ بها فى خزنة خاصة بمنزله، ولكن كانت هناك نسخة أخرى من البرقية وصلت إلى جريدة "المؤيد" وعلى يوسف.

فى اليوم التالى "٢٨ يوليو ١٨٩٦" خرجت "المؤيد" تتصدرها البرقية مترجمة إلى اللغة العربية وفيها كل ما ينتظره الشعب المصرى ويريد معرفته، واستشاط ناظر الحربية غضبا وكلف أحد كبار موظفى الوزارة "ملحمة بك شكور" بالتوجه إلى مكتب التلغراف والتحقيق، وبعد التحرى ومراقبة الموظفين اتضح أن "توفيق كيرلس" هو الذى سرب البرقية إلى "المؤيد" وتم التحقيق فى الموضوع، وانحصر الاتهام فى توفيق كيرلس بإفشاء أسرار الدولة، واتهم على يوسف بنشر هذه الأسرار وتم تقديمهما إلى المحاكمة.. فى نفس الوقت تقدم "فارس نمر" صاحب "المقطم" ببلاغ إلى النيابة العامة ضد على يوسف والمؤيد ومكتب تلغراف الأزبكية أن مراسل المقطم فى "بيا" أرسل إليه برقية يوم ٢٧ يوليو فوجدها منشورة بنصها فى "المؤيد" ، وتم تقديم على يوسف وتوفيق كيرلس إلى المحاكمة فى القضيتين ، وظهر أثناء نظر القضية أن قانون المطبوعات يخلو من نص على عقوبة نشر أسرار الدولة، ولكن وجد "لورد كرومر" ثغرة فى قانون العقوبات تعاقب الموظف العام الذى يفشى أسرار الدولة، ومورست ضغوط عنيفة على توفيق كيرلس للتنصل مما قام به، أو إلقاء التهمة كلها على صاحب المؤيد "على يوسف" ، لكنه صمد وقاوم الضغوط، وترافع=

الكتب التى درسها على يوسف بالأزهر على كبار الشيوخ، وقال إن دراسة هذه الكتب كانت تؤهله للتدريس بالأزهر ولأن يصبح من كبار العلماء.. فيرد محامى السادات مستعينا ببعض الشهود من العوام، ليقول أحدهم إن على يوسف رجل وضيع فيسأله لماذا .. فيرد لأنه رآه ذات مرة فى المطبعة يصحح بعض المواد بنفسه قبل طباعتها، حين كان يصدر مجلة "الآداب"، ويأتى شاهد آخر ليقول إن على يوسف ليس ذا أصل لأنه جاء من بلصفورة بالصعيد ولم يكن من القاهرة أصلا.. وسارت المرافعة على هذا النحو.

انتهت المحكمة من الاستماع إلى المرافعة وإلى الشهود وتحدد يوم الخميس ١١ من أغسطس للنطق بالحكم، الذى جاء على النحو التالى: "حكمنا للسيد أحمد عبد الخالق السادات المذكور على الشيخ على يوسف صاحب المؤيد وصفية بنت السيد أحمد عبد الخالق المذكور بعدم صحة عقد زواجهما المذكور وعدم جواز اجتماعهما" والأهم من منطوق الحكم هو حيثيات وأسباب النطق به، والتى تعد وثيقة اجتماعية

=عن المتهمين المحاميان إبراهيم الهلباوى "بك" وأحمد الحسينى "بك" ، وتابع الشعب المصرى المحاكمة، وغصت قاعة محكمة عابدين بالمئات من المواطنين ومئات أخرى حولها، وأدين توفيق كيرلس بالسجن ثلاثة شهور وبراءة على يوسف من التهمتين. وقد رفعت قضية التلغراف أسهم على يوسف عاليا أمام الشعب المصرى، وتأكدت مصداقية "المؤيد" ووطنيتها فى نظر عامة الشعب المصرى . راجع أحمد شفيق" مذكراتى فى نصف قرن" الجزء الثانى صفحة ٢٣٠ - ٢٣١ - الهيئة المصرية العامة للكتاب. سلسلة تاريخ المصريين ٨٤.

مهمة، تعكس تفكير قطاع كبير من المجتمع فى تلك المرحلة .
تقول الحيثيات: وحيث إن الغنى وبسطة المال من أجلّ ما يتفاخر به فى العادة بل لا يكاد يفتخر إلا به كما هو معروف وغير قابل للانكار والمدعى عليه - على يوسف - يعترف للمدعى - السادات - بأنه يعيش من أوقاف وهى أوقاف قديمة وذلك يتدرج فيه اعترافه له بأنه نشأ فى الغنى بل اعترف له ولآبائه به صراحة (...) لا بر ولا إحسان مع الفقر ولم يدع ذلك المدعى عليه لنفسه ولم يجب لما سئل عنه عندما نسب له المدعى أنه نشأ فى الفقر لكونه فقيرا من عائلة فقراء حرفتها خدمة الغير. ولم يكن المدعى عليه معارضا فى نشأته فقيرا كما هو معروف ومشهور لا ينكره أحد، وفقره فى بدأه وإن زال الآن باكتساب الغنى لا يزول به عاره عنه عرفا، كما هو معروف فى العامة والمنصوص عليه يوافقه.

إذن فى رأى القاضى أن الفقر عار وأن هذا العار لا يزول بزوال الفقر، بل يظل مصاحبا للفقير حتى لو أصبح أغنى الأغنياء.

أما عن نسب كل من الطرفين وتأثيره على الزواج تقول الحيثيات "المدار فى الكفاءة على ما يلتحق به العار بالمصاهرة عرفا، وحيث إنه تحقق من شهادة إبراهيم بك حفظى ومصطفى أفندى على فى هيئة الجلسة، ومن شهادة سعادة عثمان باشا غالب وحضرة حسن بك مدكور وغيرهما ممن استحضروا للوقوف منهم على حقيقة المتنازع فيه أن السيد أحمد عبد الخالق السادات يلحق العار بمصاهرة الشيخ

علي يوسف وذلك يكفي في ثبوت عدم الكفاءة لو لم يكن غيره". وإذا كانت المحكمة قد أخذت دون سبب مقنع بالشهود الذين أحضرهم السادات، فإنها أيضا دون سبب مقنع رفضت شهود علي يوسف. تقول الحيثيات: حيث إن شهادة الشيخ حسن الهواري والشيخ عبد الهادي مخلوف والشيخ علي إدريس على كفاءة الشيخ علي للسادات لم تصح لقصور أوجه الكفاءة فيها وظهور عدم معرفتهم للسيد السادات عند البحث معهم في ذلك.. وتضيف الحيثيات "حيث إن محمود السوسي من ضمن من استحضروا للتحقيق منهم عن المتنازع فيه قال إن السيد السادات لا يلحقه العار بنسب الشيخ على يوسف وهو فرد لا يكفي فلا تثبت بشهادته الكفاءة". ولا تكتفي الحيثيات بذلك بل تقول "وحيث إنه يفرض صحة شهادة هؤلاء الأربعة على الكفاءة فلا تعارض شهادتهم شهادة الشهود بأنه يلحق المدعى العار بمصاهرة الشيخ علي لأن شهادة لحوق العار شهادة بفساد النكاح وشهادة عدم لحوقه شهادة بصحته وإذا تعارضت البنيتان ترجح بينة الفساد على بنية الصحة".

ويصل التعسف مداه حين تتحدث الحيثيات عن حرفة كل من الخصمين، وحين تقدم لنا التعريف المثالي للحرفة وهو "حيث إن الحرفة من المعروف فيها بين الناس في العرف والعادة أن اشتغال الإنسان بموارد إيراده واكتسابه من أملاك أو أوقاف يستحقها وتحت نظره تعتبر كأحسن الحرف".

إذن أفضل المهن أن يعيش الإنسان على أملاكه أو أوقافه ، أما عمل الإنسان وجهده الآخر فالواضح أنه لا مكان

له فى نظر فضيلة القاضى .. ثم تتحدث الحيثيات باستفاضة عن الصحف والصحافة ، لتقول: "اشتغل بها فى غير هذه الديار أكابر الناس عقلاً وفضلاً، واشتغل بها فى هذه الديار بعض الفضلاء برهة من الزمان ولا يمكن المدعى عليه أن يدعى لنفسه هذه الصحافة لأن تقلبه فى المبادئ لغير سبب وتعرضه للشخصيات فى ثوب المصالح العامة وسكوته عن بعض ما يلزم الكلام فيه لأغراض بعض من يهمه رضاه وكثرة إضراره عندما يريد أن ينفع وغير ذلك مما هو معروف يمنعه من دعوى القيام بهذه الصحافة لنفسه، ولا تذهب به بعيداً بسرد شئ من ذلك لأنه معروف مشهور، ونقف معه فى هذه الحادثة التى هى موضوع النزاع والبحث اليوم ولا نزيد عليها، فإذا يكون المدعى عليه ليس مشتغلا بالصحافة قائما بها؛ وإنما هو مشتغل بشيئ يشبهها اشتغل به لأغراضه، ملبسا له ثوب الإرشاد والمصلحة العامة. وهذا اشتغال يعتبر اشتغالاً بأخس الحرف فلا يكون محترفا بحرفة شريفة.

كان القاضى مصمما على أن يدين على يوسف بشتى السبل والانحياز المطلق لموقف الشيخ السادات، ولنتابع كيف تعامل مع الأسباب التى رآها على يوسف لصحة عقد الزواج، تقول الحيثيات "حيث إن ما ذكره وكيلا المدعى عليهما من قبض المدعى المهر وأخذه النشان وقبوله الهدايا لم يثبت وحيث إنه على فرض إثباته لا يفيد الرضاء لأن المنصوص عليه شرعاً أن قبض الولى المهر إنما يكون رضى إذا كان عدم كفاءة الزوج ثابتا عند القاضى وعدم كفاءة المدعى عليه لم

يثبت عند القاضى وقت قبضه، فلا يكون قبض المدعى له رضى".

وكان الشيخ على يوسف قد دفع بعلمه وأنه درس فى الأزهر، وهذا يكفى ليجعله كفؤاً للشيخ السادات الذى لم يحصل مثل هذا العلم، لكن القاضى لم يقبل ذلك بالقول فى الحيثيات "وحيث إن العلم الذى زعمه المدعى عليه لنفسه وبينه بحضوره الكتب التى ذكرها فى الأزهر وغيره ليس كافيا للعالمية المرادة للفقهاء المعتبرة فى الكفاءة إذ هى عبارة عن العلم بالله وبالأحكام العملية وعدم ارتكاب ما يخالفها ومجرد صنعة التحرير والإنشاء لا تدل عليها".

وحين تقدم دفاع "على يوسف" بما يثبت عضويته فى "نقابة الأشراف" والتى تثبت أنه ينتمى فى النهاية إلى الحسن بن على بن أبى طالب، رفض القاضى هذه العضوية رغم صحة أوراق النقابة. تقول الحيثيات "هذا هو الموافق للمعروف من عمل نقابة الأشراف فى إثبات الأنساب وكل هذه أخبار لا تفيد ثبوت النسب ثبوتا قضائيا وإن كان المخبرون عدولاً فلا يكون حجة فى ثبوت النسب".

ولم يشفع لنسب على يوسف لدى المحكمة شهادة شيخ الأزهر. تقول الحيثيات "وحيث إنه لما استفهم من فضيلة الأستاذ شيخ الجامع الأزهر بناء على ما تقرر من هذه المحكمة وردت إفادته يقول فيها إنه ثبت عنده هذا النسب ثبوتا شرعيا والظاهر أن مراده من الثبوت الشرعى هو هذه الإجراءات إذ هى المتبعة فى عمله فى مثل ذلك (..) فلا يفيد ذلك الثبوت

القضائى فتعين أن يكون مراده من الثبوت الشرعى هو مجرد إخباره بذلك النسب إما مكاتبة أو مشافهة (..) ولا يتأتى حمل الثبوت الشرعى فى عبارته على الثبوت القضائى إذ هو لا يكون إلا شهود عدول بعد دعوى شرعية لدى قاض يملك فصل الخصومات وفضيلته ليس من خصائصه ذلك.." ويرى الحكم أن منصب شيخ الأزهر ليس له "إلا الأعمال الإدارية التى لا تكون حجة للثبوت للقضاء الشرعى".

وبينما رفض القاضى اعتماد وثائق نقابة الأشراف وكذلك شهادة شيخ الأزهر، كذلك اعتبر أن ما يقوم به على يوسف فى المؤيد ليس من الصحافة الصحيحة، فإذا به فى نفس الحكم يؤكد نسب الشيخ السادات معتمدا فى ذلك على أعداد من "المؤيد" كانت قد نشرت، أخبارا عن بيت السادات وصفته بأنه "من أقدم البيوت الأثيلة فى المجد فى مصر بيت السادات الوفائية وهو بيت اشتهر بالعلم والفضل والبر والإحسان من قديم الزمان كما اشتهر بكرم المحتد وطيب النجاد وينتهى نسبة إلى الحسن ابن على".

اعتمد القاضى هذا الكلام باعتباره اعترافا من على يوسف بأصالة بيت السادات - لم يكن على يوسف قد أنكر ذلك فى أى وقت - وأخذ به القاضى!!

كانت حيثيات الحكم أشبه بعملية إعدام لعلى يوسف، فقد حوسب على مواقفه وآرائه السياسية، وحوسب على كتاباته وعلى سياسة المؤيد، وحوسب على فقرة الذى كان، وعلى حرفته ومهنته!! جاء الحكم وثيقة وإعلانا عن الاتجاه

المحافظ إلى حد التشدد فى المجتمع والذى يهدر قيم العمل والاجتهاد الإنسانى، ويسخر من روح الإسلام التى جعلت الفضل بين المسلمين لأمور عديدة أبرزها العمل، وليس بينها وراثة الثروة والأموال والأوقاف!!

* * *

أحدث الحكم صدى واسعا فى المجتمع، وربما كان أفضل وصف لهذا الصدى قول السيد رشيد رضا فى المنار "أعجب به الأكثرون فى القطر كله، وانتقده بعض الناس بأن فى الحيثيات أمورا خطابية غير شرعية وتضعيفاً للقوى من دفاع أحد الخصمين مع قبول مثله من الآخر".

أما "اللواء" فقد خرجت فى اليوم التالى للنطق بالحكم تعلن أنه عقب صدور الحكم، الذى استغرقت تلاوته بحيثياته من الثامنة إلى التاسعة والنصف، هتف الجمهور "لتحيى الشريعة، ليحيى العدل" ، ويهتف معهم صاحب اللواء الزعيم مصطفى كامل قائلا "هذا هو القاضى عمر.. قبلوا يديه أيها المسلمون" ونشرت اللواء نص الحكم وقدمت له بالقول "حادث جناه أكبر زميل لنا وأشهر من عرف بالوعظ والإرشاد على بيت اشتهر أنه من بيوت النبوة".

أما الشيخ على يوسف فكان تعليقه على الحكم فى المؤيد ".. أما نحن فلم يؤثر علينا ما فى لهجته الشديدة بشيئ ما، إذ أمامنا الاستئناف وفى اعتقادنا أنه سينصفنا ويصبح حكم حضرة القاضى الابتدائى أشبه بمقالة من جملة المقالات التى قرأناها فى بعض الصحف ونسيناها."

بصدور الحكم الابتدائى تراجع تناول القضية فى الصحف واختفت حكاية على يوسف من صفحات الصحف الأولى لصحف القاهرة بعد أن ظلت ٢٥ يوما تحتل معظمها المكان الأبرز .. "اللواء" فقط هى التى واصلت الحملة على الشيخ على يوسف فى صفحتها الأولى وبشكل يومى.

أشعل مصطفى كامل "اللواء" نارا ضد الشيخ على يوسف منذ بداية القضية، ثم زاد من حدة الهجوم بعد صدور الحكم الابتدائى، وفى أحيان كثيرة بلغ الهجوم الدرجة التى توصف فى القانون اليوم بأنها سب وقذف علنى، عقب صدور الحكم مباشرة نشر "اللواء" رسالة من زينب محمد جلال بالبغالة ترجو فيها ".. أن تخبروا القراء بسرور السيدات عموما من هذا الحكم الذى هو عين الصواب" ورسالة أخرى من "تورجوان شوكت" مسلمة تركية بالدرب الأحمر تحمل نفس معنى رسالة سيدة البغالة، ثم خطابا مفتوحا - يوم ٢٠ أغسطس - موقع باسم وجيه من الإسكندرية إلى الشيخ على يقول فيها "قم واكتب للسيد السادات وتقدم إليه خاضعا متأدبا واطلب العفو منه عن جنايتك عليه فى أعظم عزيز لديه واعترف له بما بينك وبينه من الفرق الشاسع والبون البعيد.." ثم يواصل ذلك الوجيه آمرا على يوسف "قم واكتب للأمة التى رفعتك من الحضيض إلى العلا وكافأتها على ذلك بإدماء فؤادها.. اكتب لها خاضعا خاشعا مسترحما، واطلب منها عفوا ورحمة وذكرها بتلك الأيام التى كانت وأنت متربع فى فؤادها".

بعد عدة أيام ينشر اللواء خطابا آخر من وجيه بالقاهرة إلى السيد توفيق البكرى يقول فيه "كيف سمحت لبنت بكر

شريفة الحسب والنسب أن تأتى بيتك خفية من غير علم أبيها وتسهل لها كل طريق لكى تعقد عقد نكاحها على رجل أنت أعلم الناس بأنه حاول كثيرا الحصول عليها ولم يقبل أبوها". ومن التساؤل إلى الاتهام الصريح يقول ذلك الوجيه المجهول "ثابت مثلا أن منزل الظاهر مكث نحو ستة شهور وهو فى استعداد حتى لملابس السيدة التى صار تفصيلها وتجهيزها بمنزلك وبتمام معرفتك مما دل على أنك دبرت الأمر تدبيرا ورتبته ترتيبا.." ويفسر ذلك الوجيه موقف البكرى بواحد من احتمالين.. الأول - يقول - "أن يكون بينك وبين السيد السادات عداوة قديمة وحقد عظيم". ويرى ذلك الوجيه أن ذلك "ليس من الشهامة فى شئ بل والخسة والدناءة بعينها.."، الاحتمال الثانى "..أن يكون بينك وبين الشيخ على يوسف علاقات مالية قضت عليكما بالاتفاق على أن تقضى له هذا الأمر.." ويرجح الوجيه الاحتمال الثانى ثم يطلب إليه أن ينصح صفية ويقول "تصحك لها الآن لا يخلو أيضا من بعض التأثير لأنها بذلك تعلم أن لا فائدة إذا من المكابرة والمجادلة فترضخ عن طيب خاطر لما حكم به الشرع الشريف وترجع طائعة مختارة لبيت أبيها.."، وقبل نشر هذه الرسالة كانت اللواء قد نشرت رفض صفية العودة إلى منزل والدها وأنها تكلمت مع الشيخ الرافعى فى ذلك. تقول اللواء "الست صفية بكت وطلبت أن تظل عند الشيخ ولا تذهب إلى أبيها". وأخذت اللواء تنشر أخبارا ذات طابع استفزازى للشيخ على، مثل أنه لم يتقدم إلى المحكمة للاستئناف، وأنه.. وأنه، ثم بعد ذلك تنشر تصريحا مجهلا لأحد القضاة، جاء فيه "تفضل قاض فاضل من مستشارى محكمة

الاستئناف الأهلية فجهر لنا بأنه قرأ حكم المحكمة الشرعية في قضية صاحب المؤيد وتناقش في شأنه وحيثياته مع بعض إخوانه من القضاة بحضور بعض القضاة الشرعيين وقد أجمعوا على أن هذا الحكم فريدة قلادة أمثاله من الأحكام الشرعية متانة وإحكاما وأن النصوص الشرعية التي حواها من أشهر النصوص اعتبارا.."

وأخذت اللواء في نشر رسائل من الخارج ، تصور استياء المسلمين في أنحاء العالم من الشيخ علي يوسف، فمدرس مصري يقضي الصيف في إستانبول يكتب لهم عن حزن المصريين في تركيا وكذلك حزن الأتراك على ما قام به علي يوسف، ثم رسالة من "مكاتبنا في بومباي" تعكس حزن مسلمي الهند، ورسالة تعبر عن مسلمي آسيا. وأخذت اللواء تهاجم من يدافعون عن علي يوسف وتسميهم "عصبة صاحب المؤيد". وانبرت تهاجم جريدة "الوطن" التي دافعت عن علي يوسف ، وكان رأي اللواء أن "الوطن" جريدة تهتم بقضايا المسيحيين ومحرريها من المسيحيين، فلماذا تزج بنفسها في هذه القضية؟!! وأسمت تناول الجريدة للقضية بأنه "تطفل"[1]!!

كانت "المؤيد" في المقابل تنشر رسائل تؤيد الشيخ علي يوسف، وكذلك المقالات حتى لو نشرت في صحف أخرى مثل مقال "الجازيت الفراء" ، وفي أوائل سبتمبر منح السلطان

---

(١) بدأت جريدة "الوطن" معبرة عن عرابي والحزب الوطني، ومحررها ميخائيل عبد السيد. وبعد هزيمة عرابي ودخول الخديو توفيق والإنجليز القاهرة، تحول "الوطن" إلى مساندة الاحتلال وتوفيق.

العثماني وساما، ونشر المؤيد - ٣ سبتمبر - خبر المنح: "يبشرنا بإنعام جلالة مولانا السلطان الأعظم على صاحب هذه الجريدة بميداليتي الامتياز الذهبية والفضية " فإذا باللواء تخرج في اليوم التالي مباشرة لتعلن "..نقول للمصريين إن هذا الإنعام لم يوجه إلى الشيخ بعد ظهور مساويه من عرقلة السكة الحجازية ومحاربة العادات والأخلاق بل وجه إليه قبل أن يصل نبأ هذه المساوئ إلى "المابين[1] .." وتستدل على ذلك بالقول فيما بعد "إذا كانت أعمال صاحب المؤيد الأخيرة وخصوصا تشهيره بالسكة الحجازية أغضب جميع المسلمين طرا، فما بالك بجلالة الخليفة الأعظم وهو إمامنا وقبلتنا.." ثم ينشر اللواء بعد ذلك للتدليل على غضب السلطان من على يوسف أن "المؤيد" منعت من دخول الممالك العثمانية، وصار الوسام العثماني قضية القضايا عند اللواء "الرتب والوسامات لا ترفع مقاما ولا تعلي شأنا بل يرفعها حاملا ويزينها صاحبها" وكثف اللواء من نشر الرسائل التي تندد بالشيخ على يوسف، ففي يوم واحد - ١٠ سبتمبر - تنشر ١٤ رسالة من قراء يسبون صاحب المؤيد.

احتلت قضية الوسام أولوية أولى لدى "اللواء" وسبقت استئناف قضية التفريق في هذا الجو المليئ باللغط بين حكم

(١) المابين: مصطلح يطلق على حاشية السلطان عبد الحميد وسكرتاريته، وكانوا يحولون بين السلطان ومن يريد مقابلته وكانوا المسئولين عن تقديم المعلومات والبيانات عن السلطنة ورجالها إليه، وكانوا غالبا ما يقومون بالدس لدى السلطان وتقديم التقارير الكيدية فيمن لا يدفع لهم ولا يكون على هواهم.

التفريق والوسام، وبين المؤيدين والمعارضين، كتب شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدته الشهيرة فى هذا الموضوع، والتى بدأها مخاطبا مصر بالقول:

حطمتُ اليراع فلا تعجبى ... وعفتُ البيان فلا تعتبى
فما أنت يا مصر دار الأديب ... ولا أنت بالبلد الطيبِ
وكم فيك يا مصر من كاتب ... أقال اليراع ولم يكتب

ثم تحدث حافظ إبراهيم عن القضية قائلا:

وقالوا : (المؤيد) فى غمرة ... رماه بها الطمع الأشعبى
دعاه الغرام بسن الكهول فجن جنونا ببنت النبى
فضج لها العرش والحاملوه ... وضج لها القبر فى يثرب
ونادى رجال بإسقاطه ... وقالوا: تلوّن فى المشرب
وعدوا عليه من السيئات ألوفا تدور مع الأحقب
وقالوا لصيق ببيت الرسول ... أغار على النسب الأنجب

وزكّى (أبو خطوة) قولهم بحكم أحد من المضرب..

وينتقل الشاعر إلى قضية الوسام وردود أفعالها، التى جاءت عقب الحكم:

فما للتهانى على داره ... تساقط كالمطر الصيب؟
وما للوفود على بابه ... تزف البشائر فى موكب
وما للخليفة أسدى إليه ... وساما يليق بصدر الأبى
فيا أمة ضاق عن وصفها ... جنان المفوه والأخطب
تضيع الحقيقة ما بيننا ... ويصلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينا الإمام الحكيم ... ويكرم فينا الجهول الغبى
على الشرق منى سلام الودود ... وإن طأطأ الشرق للمغرب..

جاءت القصيدة تعبيرا قويا عن المفارقة والتناقض في الموقف كله، بين الذين اتهموا وأدانوا المؤيد - على يوسف - والذين سارعوا إلى بابه مهنئين بالوسام الذى منحه الخليفة وهو نفسه الذى يتبعه القاضى الذى أدانه!! وعن الصحف التى تناولت القضية بالمدح أو القدح قال حافظ إبراهيم :

وصحف تطن طنين الذباب
وأخرى تشن على الأقرب!!

* * *

تابع اللواء أخبار الاستئناف بالتفاصيل التى يمكن أن تكون مملة، وإذا بها تنشر أن "عصبة على يوسف" يرددون أن هناك محاولات وتدخلات للتأثير فى القضاء الشرعى لكى يأتى الاستئناف لصالح على يوسف، وتنبرى اللواء لتؤكد أن الخديوى لا يمكن أن يتدخل لدى القضاء ولا سلطة الاحتلال. ثم تنشر - ١٩ سبتمبر - خبر تنحى الشيخ أحمد إدريس رئيس المجلس الشرعى عن نظر القضية "طلب إقالته منها وامتنع عن مباشرة نظر هذه القضية" ونشر الخبر بما يوحى أن هناك ضغوطا كانت تمارس على الرجل فاضطر للابتعاد. وفى اليوم التالى مباشرة تنشر أن الشيخ إدريس سوف ينظر القضية ومعه الشيخ محمد ناجى، وغياب الشيخ عبد الرحمن السويسى والشيخ محمود الجزيرى لقيامهما بأجازة الصيف، وكذلك تنحى فضيلة الشيخ أحمد المنزلى لنفس السبب، ولذلك فإن "مولانا القاضى الأكبر" سيتولى النظر فى القضية، وكان نفس المحامين الذين ترافعوا عن أطراف القضية فى الدرجة الأولى هم الذين ترافعوا فى الاستئناف.

تقدم محامي علي يوسف ومحامي صفية السادات بدفعين أساسيين :

الأول.. تقدم به حسن بك صبري محامي علي يوسف وهو أن موكله كفء للسادات، حيث إنه ينتمي في أصله إلى الحسين بن علي أي أنه حسيب نسيب مثل السادات، ويزيد عليه أنه خريج الأزهر ومن ثم فهو من العلماء.. وأن السادات قد عضل ابنته.

الثاني.. تقدم به الشيخ محمد عز العرب محامي صفية السادات وهو أن السادات "رضي بزواجها من المدعى عليه صريحا وقبض نشانها ومعجل صداقها وبشرها بقرب زفافها..".

وتحدد يوم السبت أول أكتوبر للنطق بالحكم، وخرجت اللواء يوم الخميس لتقول إن الشيخ أحمد إدريس والشيخ محمد ناجي اختليا للمداولة في قضية "فسخ العقد"، ولما كانت "اللواء" لا تصدر يوم الجمعة، فقد خرجت صباح السبت وقبل النطق بالحكم بخبر يكاد يكون إعلانا ضمنيا بالحكم. قالت: إن الشيخين يوم الخميس "لبثا في خلوتهما إلى منتصف الساعة الخامسة مساء وأنهما كانا مشتغلين بإعداد القرار الذي يسبق عادة تأييد الأحكام المستأنفة من هذه القبيل.." وأنهما عرضا نتيجة مداولتهما على "سماحة مولانا القاضي الأكبر"، وجاء الحكم كما ذكرت اللواء تأييدا كاملا وحارا للحكم الأول. أما الحيثيات فهي إعادة صياغة وبتركيز لحيثيات الحكم الأول مثل القول "حيث إنه قد تحقق عدم كفاءة الشيخ على أحد المدعى

عليهما وأن المدعى يلحقه العار بمصاهرته."، وبهذا المنطق انتهى قاضى قضاة مصر: "يكون الحكم صحيحا والدفعان غير مقبولين وقال "قررنا باتحاد الآراء رفض الدفعين المذكورين وصحة الحكم المذكور".

بعد صدور حكم الاستئناف خرجت "اللواء" لترد على من دافعوا عن على يوسف، وبلهجة الواعظ قالت "إنهم يلتمسون العذر لصاحب المؤيد بأن للغرام سلطانا لا يقوى على بطشه أشجع الشجعان، ولكن الاسترسال مع الهوى شيئ والمحافظة على الآداب العائلية شيئ آخر، وكان فى استطاعته أن يضيف إلى أربع سنى الخطبة ربعها أو نصفها أو أكثر من ذلك أو أقل حتى يظفر ببغيته من غير أن يسيئ إلى قومه".

أصبح السؤال الملح حول مصير "صفية السادات"، فقد فرقها القضاء عن زوجها، وهى ترفض العودة إلى منزل والدها، لكن أمكن التغلب على هذه المشكلة ، وخرجت اللواء يوم ٤ أكتوبر لتقول "كان ينتظر بعضهم وقوع إشكالات جديدة فى قضية الزوجية وعدم رضوخ كريمة السيد السادات إلى نصائح المخلصين وقبولها العودة إلى منزل أبيها، ولكننا علمنا أنها قبلت العودة إلى مهدها الأول فأرسل إليها سماحة والدها عربة فى صباح اليوم حيث نقلتها من منزل فضيلة الأستاذ الشيخ الرافعى إلى منزله وبذلك انتهى إشكال قضية الضم".. ولم يفت اللواء أن تشكر الشيخ الرافعى".. فنشكر بلسان الغيورين مروءة الأستاذ الذى حفظها فى بيته كل هذه المدة التى كثر فيها القيل والقال وتهنئ السادات بهذه النتيجة.

وفيما بعد سنعلم أن السيدة صفية كانت مصرة على ألا تعود إلى منزل والدها، وأن اللورد كرومر هو الذى تدخل بنفسه وأقنعها بالعودة إلى المنزل، حتى تنتهى هذه القضية لكن القضية لم تنته، فإن صفية لم تتمكن من الإقامة فى منزل الوالد، وتقول لنا السيدة بثينة على يوسف - ابنة صاحب "المؤيد" - إن والدتها تركت الرافعى عقب صدور حكم الاستئناف ولم تقم فى بيت والدها طويلا وأقامت لفترة لدى الأميرة نازلى فاضل.

لم يكن حكم الاستئناف هو نهاية القصة ولكن النهاية جاءت بشكل آخر، حدده لنا شفيق باشا فى مذكراته بالقول".. ولما كان السيد عبد الخالق السادات يركن فى هذه المسألة إلى الشيخ راضى الكبير، توصل الشيخ على يوسف إلى استرضاء الأخير حتى أقنع الأول بقبول العقد ثانية للشيخ على يوسف على السيدة صفية السادات وقد تم ذلك". إذن فيم كانت الضجة واللجوء إلى القضاء، ودعاوى الحسب والنسب وعار المصاهرة وعار الفقر الذى لا تمحوه الثروة وانعدام الكفاءة و...؟!!

الواقع أننا لا نستطيع أن نتعاطف مع موقف الشيخ السادات. وما ظهر منه وعنه طوال نظر القضية يدفعنا إلى النفور التام منه، رغم أن ما قام به كل من على يوسف وصفية السادات، كان صادما للمجتمع بتقاليده وعاداته فى الزواج، ففى تلك الفترة كان المجتمع يرى مجرد تبادل بضع كلمات بين الفتاة وأى رجل من خارج أسرتها عيبا كبيرا وانحلالا أخلاقيا.

فما بالنا بفتاة تخرج من بيت والدها لتتم زواجاً لا يريد ذلك الوالد له أن يتم ..؟!! وربما ضعف السيد على يوسف أمام مشاعره وعواطفه، خاصة وأنه كان متزوجا، ولعله لم يتصور أن السادات سوف يقوم بما قام به من فضح الأمر أمام الرأى العام وفى ساحة القضاء ، ربما تصور على يوسف أن السادات سيتسلح بمبدأ "الستر" الذى يعرفه المجتمع المصرى خاصة وأن الأمر يتعلق بابنته، وربما تصور على يوسف أن تلك الوسيلة الوحيدة لإتمام الزواج، وكان عليه أن يتحسب الخطأ أكثر، وأن يمارس ضغوطا أكثر على السادات لإتمام الزواج.

الطرف الذى يستحق تعاطفنا الكامل فى هذه القضية هو صفية السادات، فقد كانت تبحث عن تحررها من أب متسلط بل لا نبالغ إذا قلنا أب فاسد، ولنتابع الوصف الذى قدمه الإنجليزى الذى شغف بمصر وبأهلها "د. س. بلنت" يقول: "منعها أبوها من الزواج بدافع الارتزاق من ورائها مع أنها الآن فى السابعة والعشرين وكان مركزه كنقيب لأشراف المسلمين يتيح له فرض هدايا غالية على طالبى يدها الذين لا يلبث أن يرفضهم بعد ذلك، ولكن الفتاة ثارت على تأخر الإذن لها بالزواج". استقى "بلنت" هذه المعلومات من صديقه الشيخ محمد عبده.

كان السادات إذن يتاجر بابنته ويعاملها كسلعة، فرفضت هذا المبدأ واختارت طريقها ، وتقول بثينة على يوسف: إن السادات كان قد شغف فى تلك الفترة بجارية سوداء لديه، ألهته عن كل شئ ، وكانت سببا لأن يسيئ معاملة ابنته

مما جعلها تنفر من بيت والدها ومن والدها نفسه، خاصة بعد أن تزوج من تلك الجارية .

ولنا أن نتخيل مشاعر صفية "التى بلغت سن العنوسة - بمعيار تلك السنوات - وتحب خطيبها ويمنعها والدها من الزواج، ثم يبيح لنفسه التصابى واللهاث خلف جاريته!!

الغريب أن ما تسمى بالحركة النسائية المصرية لم تعتبر إلى اليوم "صفية السادات" رمزا كبيرا لاختيار المرأة مصيرها بنفسها، وأن تقرر شكل حياتها والرجل الذى تريده.. وتعلن هذا للملأ وأمام الجهات الرسمية ، وهى على عكس "الرموز النسائية" وكان معظم نضالهن بالمقالات والكلمات المكتوبة أو الأنشطة الاجتماعية والخيرية، أما هى فكانت طريقا آخر تعرضت لتجربة ذاتية تتعلق بحريتها هى، واختارت وتحملت مسئولية اختيارها ودافعت عنه وقاتلت من أجله!!

تبقى شخصية مصطفى كامل والشيخ محمد عبده، وموقف كل منهما يدعونا للتساؤل.. الأول أخذ موقفا بالغ التنديد والعدوانية بالشيخ على يوسف، والثانى التزم الصمت التام، رغم أنه كان مفتيا لمصر.

كان مصطفى كامل محافظا فى القضايا الاجتماعية ، لكن المسألة تبدو أمامنا الآن أكبر من ذلك، ولنقل إنها لم تكن الأصل عنده، خاصة وأن "اللواء" لم تكن جريدة اجتماعية ولكنها صوت "الحزب الوطنى" واهتمامها سياسى، وتركز على قضية الاحتلال الإنجليزى لمصر، ولكنها انجرفت إلى قضية

الزوجية ووضعتها على رأس أولوياتها وهمومها، والحقيقة أن المسألة عند مصطفى كامل كانت سياسية ولم تبتعد عن همه الأساسي.

ففي أوائل سنة ١٩٠٤ وقع الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا ، وبمقتضاه كان على فرنسا ألا تتدخل في أمر احتلال إنجلترا لمصر ، وفي المقابل تترك لها إنجلترا أمر بلاد المغرب العربي، ترتب على هذا الاتفاق أن هادن الخديو عباس حلمي الاحتلال الإنجليزي واللورد كرومر ، وكان الخديوي في البداية – وأيضا مصطفى كامل – يتصور أن فرنسا هي التي ستعمل على إخراج الإنجليز من مصر، ولما كان على يوسف مرتبطا بالخديو فإن عداءه للإنجليز لم يستمر على النحو الذي أراده مصطفى كامل، فاعتبره مهادنا للاحتلال، كذلك فإن مصطفى كامل اعتبر أن على يوسف ليس كامل الولاء لدولة الخلافة ولخليفة المسلمين في إستانبول، ووجد مصطفى كامل في قضية الزوجية فرصة للتنديد بعلى يوسف والتشهير به، وكان موقفه من على يوسف يعني ضمنيا موقفه من سياسة الخديو. وحين انتهت قضية الزوجية وتراجعت من الصحف؛ فإن مصطفى كامل لم يوقف هجومه الحاد على علي يوسف، وكان الهجوم الدائم بعد القضية بسبب الوسام الذى منحه خليفة المسلمين لعلى يوسف، فقد أخذ مصطفى كامل يتحدث عما أسماه "الإنعام الملفق" ، وعن أن الوسام قد تقرر قبل أن يعلم الخليفة موقف على يوسف من مشروع السكة الحجازية.. الطريف أن الوسام الذى تقرر لعلى يوسف كان مقابل الأموال

التى تبرع بها الأهالى للمشروع من خلال "المؤيد". باختصار كان وساما مدفوع الثمن، ويتعلق بمشروع السكة، لكن مصطفى كامل أصر على أن على يوسف كان يتصدى للمشروع خفية..!!

وأثناء نظر قضية الزوجية أمام محكمة الاستئناف كتب مصطفى كامل مقالاً فى ديفون يوم ٢٩ أغسطس نشره يوم ٦ سبتمبر ١٩٠٤ وكان افتتاحية اللواء. عنوانه "من فضيحة إلى فضيحة.. أسئلة صريحة"، كان المقال كله عن "فضيحة المؤيد وفعلته الشنعاء" وتحدث مصطفى كامل عن رجال "يفضحون أنفسهم بأنفسهم اليوم ويضحكون الأجانب علينا ويحملون الأعداء على الشماتة بنا.. "ويقول مصطفى كامل" إن الرأى العام صار فى مصر جسما حيا قويا شديد الساعدين يضرب الجانى والمفسد والخائن الضربة فيميته .." ثم يقول "إن كل أمة تصاب فى أول عهدها بالحياة العالية بأفراد منافقين يدعون خدماتها ثم تظهر نواياهم السيئة فلا يلبثون أن يقعوا فى هاوية الانحطاط والاضمحلال .." ثم يقول "أوجه إلى صاحب المؤيد أسئلة صريحة أعرف أنه عاجز عن الجواب عليها ولكن أوجهها حجة عليه وأصوبها سهاما قاتلات إن كان لا يزال فى صدره مكان خال من نبال".

وجه مصطفى كامل ستة وعشرين سؤالا إلى على يوسف، أكثر من نصفها يدور حول مواقفه السياسية والوطنية.. مثل "هل الرجل الذى يقيم عشرة أعوام على مبدأ سياسى مرماه الجلاء والاستقلال ثم يتحول عنه الى إطراء الاحتلال ومسالمته

يعد منافقاً أم لا؟ وسؤال أخر "بماذا يسمى المصرى الذى يقبل الاحتلال ويطريه بعد أن كان يدعو إلى معاداته والمطالبة بحقوق البلاد؟ كانت أسئلته السياسية من هذا النوع ، وهى لم تكن أسئلة بالمعنى المعروف ولكنها محاكمة سياسية تحاسب الرجل عن تصرفاته وكتاباته بل وفى أحيان عن نواياه، مثل" هل يقبل مسلم قولكم إن جلالة السلطان الأعظم أصدر مشروع السكة الحجازية بلا استعداد ؟!! وبعضها كان يحمل اتهامات واضحة ومحددة مثل "إذا كنت قد حاولت هدم الوطنية وأصبحت تسخر منها وأخذت تهدم العائلة وتحارب روح الشريعة، فماذا من تخدم وأى المبادئ تنشر؟...

أما الأسئلة التى تتعلق بقضية الزوجية ، فكانت تحلق بعيداً عن وقائع القضية مثل " هل تكون الزوجة صالحة كاملة وأماً نافعة مهذبة بعد أن تعلن للملأ كله احتقارها لأبيها واستياءها منه لأمر لا تذكره النساء الكاملات أبداً ؟"

لن ننظر إلى موقف مصطفى كامل بعيوننا اليوم، فلو فعلنا ذلك لأصدرنا أسوأ الأحكام عليه ، ولكنه كان وطنياً شديد التحمس ، شاباً سريع الانفعال جعل من قضية الاحتلال ومقاومته هم عمره كله ، ورأى أن على يوسف قد أخل بهذه القضية ، والتقى الموقف السياسى مع الموقف الاجتماعى ، فشن مصطفى كامل حملته الضاربة. يقول شفيق باشا فى مذكراته عن سنة ١٩٠٤" ولما ثارت قضية زواج صاحب المؤيد وعمل الخديو لتأييده من وراء الستار، زاد نفور مصطفى كامل من خطة الخديو، فلما سافر سموه إلى ديفون

هذا العام زاره هناك مصطفى كامل ، وصارحه برأيه فى مضار هذه الخطة، وبين له أن الرأى العام لا يعطف على الشيخ".

بعد ذلك وفى ٢٤ أكتوبر أرسل مصطفى كامل خطابا إلى الخديو بالقطيعة بينهما بسبب اختلاف موقفهما من الاحتلال ، ثم قال له وكأنه يقصد تحديدا على يوسف "وإنى أرجو أن يعتقد مولاى، حفظه الله، أنى لم أقصد إلا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ويضرون بها أكثر من أعدائها الظاهرين ويدخلون اسمكم الكريم فى كل حادث غير حاسبين للرأى العام حسابا، غير ذاكرين أن عرش الخديوية هو البقية العزيزة لاستقلال البلاد"، ثم يقول فى نفس الرسالة لخديو البلاد "وإنه ليحلو لى (..) أن تزداد كل يوم اتساعا الهوة التى بينى وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم، ثم انقلبوا عليه بلا خجل ولا حياء".

فيما بعد سيذكر الخديو فى مذكراته أسفه لسوء العلاقة بين مصطفى كامل وعلى يوسف[1].

وحين وقعت قضية الزواج كان الأستاذ الإمام محمد عبده مفتيا لمصر، وطوال إثارة القضية كان صامتا لم يعلق عليها، ولم يتخذ موقفا معلنا منها، وإن كان يمكن لنا أن نستشف موقفه من خلال رأى تلميذه الأثير السيد رشيد رضا

---

(١) مراجع "عهدى.. مذكرات عباس حلمى الثانى" ترجمة د. جلال يحيى ومراجعة د. اسحق عبيد وتقديم د. أحمد عبد الرحيم مصطفى. الناشر دار الشروق ١٩٩٢.

في المنار – سبقت الإشارة إليه – ويتلخص في أن السيدة صفية قد اتخذت الموقف الصحيح إزاء والدها طبقا للمذهب الحنفي، وأن الذين ينددون بهذا الزواج، لا ينطلقون من الغيرة على الدين كما يدعون، ويمكن أيضا أن نتلمس موقف محمد عبده من خلال قصيدة حافظ إبراهيم وقد كان المفتي وشاعر النيل صديقين .

ويبدو موقف محمد عبده بوضوح من خلال رواية "بلنت" لوقائع نوفمبر ١٩٠٤ حين عاد إلى القاهرة يقول "روى لي عبده خلاصة لكل ما حدث في الصيف وكانت الحادثة الرئيسية هي مغامرة الشيخ على يوسف التي تورط فيها الخديوى، فالخديوى منذ زيارته الأولى للندن وتعرفه إلى ملكنا قد مال إلى حياة اللهو مع النساء السيئات السمعة وأحاط نفسه برفاق السوء، ودخل في هؤلاء الشيخ على يوسف الذى كانت علاقته بالبلاط أدبية في الأصل، ولكنه أصبح سميرا وانضم إلى بطانة السوء، ومع أنه لم يعد شابا فقد تصابى في صحبة الخديو، وكان الأخير يجل من النساء ابنة الشيخ السادات التي منعها أبوها من الزواج ثم يقول بلنت كما حكي له محمد عبده ".. وعن طريق الشيخ البكرى الذى تزوج شقيقتها الكبرى تعرف إليها الخديو ثم رشحها زوجة لعلى يوسف، فتقدم الأخير طالبا يدها بمساندة عباس ولكن الموضوع انتهى باللعبة القديمة التي تبدأ بالهدايا وتنتهي بتأجيل الزواج" ثم يقول "وقد شاع أمر الفضيحة التي تسبب فيها على يوسف واتسع نطاقها في كل مكان ولم يخفف منها أن اللورد كرومر قرر في النهاية وضع

حد للنزاع فنصح الفتاة بالعودة إلى أبويها..".

وكانت العلاقة بين الخديو ومحمد عبده سيئة، فقد كان الخديو يساند خصوم محمد عبده فى الأزهر الذين يتصدون لمحاولاته فى إصلاح الأزهر، وكان محمد عبده يتصدى لأطماع الخديو فى الأوقاف، ومن ثم فإن رؤية محمد عبده للخديو بأنه فاسد، خاصة بعد أن ظهرت علاقاته بالنساء "السيئات" وانضمام علي يوسف إلى الحاشية المحيطة بعباس، ولم تكن رؤية محمد عبده للسادات أقل سوءا من رؤيته للخديو وعلى يوسف، كانت القضية لديه "هابطة" من جميع الأطراف، باستثناء صفية التى يبدو أنه كان متعاطفا معها، المهم التزم المفتى الصمت، فلو ساند على يوسف لكان معناه أنه يساند الخديو وفريقه، ولا يمكن فى إطار فهمه الدينى والاجتماعى أن يساند الشيخ السادات، ولكن حالة الصمت هذه أدت إلى سوء الفهم لدى الشيخ على يوسف الذى تصور أن الأستاذ الإمام يعمل ضده، يقول شفيق باشا ".. وكان الشيخ على يوسف يدعى أن المفتى هو الذى يحرض السيد السادات، فأراد الخديو أن ينتقم من المفتى بتغيير مجلس الإدارة [مجلس إدارة الأزهر] وإخراج الشيخين محمد عبده وعبد الكريم سليمان..".

سوف تكون هذه القضية واحدة من أسباب أخرى عديدة أدت إلى أن يترك الأستاذ الإمام محمد عبده موقعه فى دار الافتاء المصرية فى مارس ١٩٠٥، ويلفت الانتباه هنا أن الخديو سيختار الشيخ عبد القادر الرافعى، الذى أقامت لديه صفية طوال الأزمة، مفتيا لمصر خلفا للشيخ محمد عبده لكن

الرجل لن يهنأ بهذا المنصب، فقد وافته المنية بعد يومين فقط من تولى المنصب بعد أن "أصيب بالفالج" وسيخلفه أيضا الشيخ حسونة النواوى، وقد كان من فريق الخديو ومساندا للشيخ على يوسف ضد السيد السادات. وهذا يعنى أن الخديوى بالفعل كان يساند على يوسف، وأن القضية كانت سياسية فى الحقيقة.



مدخل إلى "الرسائل"



١

رغم تعدد زيجاته فإن الشيخ عبد الخالق السادات لم يرزق بولد، فقد كانت "خلفته" بنات، مرة واحدة رزق بولد، أسماه "على" لكن النفور والكراهية وقعت فى نفس الوالد تجاه هذا الابن، قيل لأنه كان من جارية "سوداء" ولم يكن من زوجة، وتدخلت الأقدار لتضع حدا لهذه العلاقة المعقدة، وتوفى "على" مبكراً، ويبدو أن ذلك جعله يفقد الأمل فى أن يرزق بالولد، وقرر أن يستبدل "الولد" بابنته "صفية".

جاءت "صفية" إلى هذا العالم من أم "شركسية" ، قيل إنها سبيت أثناء إحدى الحروب الروسية - التركية، وبيعت إلى مصر حيث اشتراها الشيخ عبد الخالق السادات، وقيل إنها اختطفت لصالح تجار الرقيق وهى فى سن السابعة، وبيعت فى استانبول ومنها إلى القاهرة حيث بيت السادات، فى ذلك الزمان من القرن التاسع عشر كانت الجوارى تباع وتشترى فى القاهرة ومعظم عواصم البلدان التى تتبع الخلافة العثمانية، فى بيت السادات تعلمت الجارية الجميلة اللغة العربية وتزوجها رجل البيت ، فأنجبت أسماء ثم صفية..

حملت "صفية" ملامح والدتها وجمالها، فسعد بها والدها وقرر أن يستعيض بها عن الولد الذى تمناه ولم يأت، وهكذا كان يصطحبها فى مجالسه وبين جلسائه وتشترك معه فى الصالونات التى يعقدها أو يحضرها، وكانت قد تعلمت اللغة

الفرنسية إلى جوار العربية، على عادة فتيات الأرستقراطية المصرية آنذاك. والحقيقة أن بيت السادات كان أقرب إلى أن يكون بيت حكم أكثر من أى شئ آخر، فهذه الأسرة تعود إلى عدة قرون فى مصر قبل ذلك، وكان منها السيد أبو الأنوار السادات الذى عرف أيام الحملة الفرنسية على مصر، وكان واسع الثراء إلى حد أن ثروته فاقت ثروة محمد على والى مصر، ويقال فى أساطير العائلة إن محمد على أراد الزواج بابنة الشيخ السادات ، لكن الأخير رفض لأنه شعر بأن الوالى لديه مطامع فى ثروته.. كانت ثروة ونفوذ "السادات الوفائية" تأتى من الأوقاف الضخمة التى تتبعهم، والمريدين فى شتى أنحاء مصر بل وخارجها، وهؤلاء جميعا وما يمتلكون يعتبرون أنفسهم "محاسيب" السادات.. وحين توفى - مثلا - والد عبد الخالق وكان طفلا فإن الذى تولى الوصاية عليه كان الخديو إسماعيل شخصيا، ولما كبر وبلغ سن الرشد سلمه أملاكه وإن اقتطع منها "عربخانة" فى منطقة بولاق أبو العلا، وضمها إلى أملاكه . هى الآن "متحف المركبات الملكية" .

وهكذا كان لدى الشيخ عبد الخالق النفوذ والمال والاسم الرنان، فتأتيه الجوارى من كل مكان، يشترى من يشاء ويتزوج من يهوى، ويفعل ما يحلو له وما يريد، وما يقوم به لا يكون موضع اعتراض.. وهكذا حين اصطحب ابنته إلى المنتديات ومجالسه لم ينكر أحد عليه ذلك، بل وجد الاستحسان والترحيب رغم أن ظروف المجتمع المصرى وقتها لم تكن تحبذ ذلك، بل لم تكن تبيحه بالمرة.

٢

كان الشيخ عبد الخالق السادات معجبا بعلى يوسف صاحب ورئيس تحرير "المؤيد" .. والواقع أنه لم يكن وحده الذى يحمل له هذا الإعجاب بل عامة المصريين، وقد كان يستحق هذا الإعجاب والتقدير لطبيعة الدور الذى قام به فى الحياة المصرية .. فهذا الصعيدى الذى ولد سنة ١٨٦٣ فى قرية "بلصفورة" بسوهاج، فى أسرة بسيطة ومتواضعة، ثم انتقل إلى "بنى عدى" شمالاً فى أسيوط حيث علمه أخواله ودفعوا به إلى الأزهر بالقاهرة، ولم تستهوه حياة العلماء فاتجه إلى الصحافة مؤسسا مع صديقه الشيخ "أحمد ماضى" مجلة "الآداب" سنة ١٨٨٧ ونجحت المجلة التى اهتمت بالقضايا الفكرية والحضارية، وبعد سنتين ترك على يوسف الآداب ليؤسس هو وصديقه "المؤيد"، التى نجحت هى الأخرى.. وليس صحيحا ما ردده البعض من أن صورة الصحافة آنذاك كانت مزرية أو أنها كانت مهنة من لا مهنة له، فقد اضطلعت الصحافة بدور وطنى وحضارى ضخم، فقد كان عبدالله النديم صحافيا وكذلك الشيخ محمد عبده وقبلهما رفاعة الطهطاوى، وكانت الصحف تعبيرا عن تيارات سياسية ووطنية لها أنصارها وخصومها، وبعد فشل الثورة العرابية وهزيمتها فى التل الكبير والاحتلال الإنجليزى لمصر تحول عبء الحفاظ على بقايا الحركة الوطنية ودعمها على الصحف والصحافيين، وهذا سر نجاح "المؤيد" وعلى يوسف. وبعد الاحتلال تأسست عدة صحف كان

همها الدفاع عن الاحتلال الإنجليزى لمصر، وعلى رأس هذه الصحف كانت "المقطم" وكانت "الاتحاد المصرى"، حتى "المقتطف" التى كانت علمية بالأساس بدأت تنشر هى الأخرى مقالات سياسية لمساندة الاحتلال، أما جريدة مثل "الأهرام"، فكانت منحازة للفرنسيين ضد البريطانيين فى صراعهم من أجل الفوز بمصر، لكنها لم تكن منحازة للقضية الوطنية وللرؤية المصرية..

أخذ على يوسف على عاتقه فى "المؤيد" الدفاع عن وجهة النظر والموقف المصرى، ومهاجمة الاحتلال البريطانى بضراوة، الأمر الذى جعل المصريين يتعلقون بهذه الصحيفة ويساندونها ويعجبون برئيس تحريرها ومواقفه وكتاباته، ولما كان الخديو عباس حلمى معاديا آنذاك للاحتلال فقد ساند "المؤيد" وصار على يوسف صديقا مقربا منه، ونال على يوسف أيضا إعجاب السلطان عبد الحميد - خليفة المسلمين - وزار الأستانة وصار من المسموعين لدى السلطان، فيما يخص شئون مصر والمصريين .. ومما زاد من قدر على يوسف فى نظر المصريين أنه كان "مصريا" بينما كانت معظم الصحف التى تساند الاحتلال وتدافع عنه، يصدرها صحافيون شوام(١).. وازداد تعلق المصريين بعلى يوسف حين بدا أن

---

(١) راجع فى ذلك د. سامى عزيز "الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى". الفصل الخامس - صفحة ١٢٥ وما بعدها - الناشر: دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - وزارة الثقافة - ١٩٦٨.

اللورد كرومر يحارب صراحة وبوضوح جريدة "المؤيد" وقد بدا ذلك جليا فى قضية "التلغراف".

ولا نعرف هل أعجب الشيخ السادات بعلى يوسف للأسباب التى أعجب بها عامة المصريين أم لأنه كان صديقا للخديو ومقربا من الأستانة وسراى "يلدز" !! وإن كان الواضح أمامنا أن إعجابه كان للسبب الأخير، ومن ثم فقد كان إعجابا لا يخلو من انتهازية.

٣

فى الأسبوع الأخير من ديسمبر سنة ١٩٠٠ كان المصريون يترقبون ظهور هلال شهر رمضان وكان الشيخ السادات من بين المنتظرين وفى الليلة المرتقبة ، طلب السادات من ابنته صفية أن تتصل تليفونيا بالمؤيد لتعرف له هل ثبت الهلال.. وكان الشيخ على يوسف هو الذى يسهر يوميا فى الجريدة إلى وقت متأخر حتى يتأكد من انتهاء عدد اليوم التالى، ولما اتصلت صفية كان هو الذى تلقى المكالمة . وبالإضافة إلى ميزات على يوسف السابقة، فقد كانت به مزية أخرى هى أنه عذب الصوت وساحر الكلمات، وكان أن تلقت صفية عذوبة هذا الصوت، ودارت بينهما المكالمة وقد وقع الإعجاب أو ولد الحب جنينا بينهما، وكان كل منهما ينتظر هذا الحب ومهيئا له، وربما أعقبت المكالمة مكالمات، وتطورت الأمور إلى الخطبة والزواج على النحو الذى عرفناه.

فى الوقت الذى كان الشيخ السادات يضع العقبات أمام إتمام الزواج، كان الحب قائما بين على وصفية، وكانت الرسائل العاطفية والغرامية قائمة بينهما، وكان الحذر قائما لدى الطرفين ، لذا فإن على يوسف لم يأمن أحدا من العاملين معه أو معارفه ليحمل رسائله إليها أو العكس وقامت بهذه المهمة صديقتان إنجليزيتان لصفية وكانتا شقيقتين ، فقد تولتا حمل الرسائل ونقلها، وهو بالتأكيد كان خيارا موفقا، فلم تكن الإنجليزيتان تتحدثان العربية ومن ثم لن تثرثرا حول هذا الأمر، فضلا عن أنهما لن تقرآ ما بها. والواضح أنهما حفظتا السر، ولو أن أمر هذه الرسائل تسرب، أو وصلت إحداها إلى أيدى السادات لما تورع عن استغلالها أثناء نظر القضية، ولكن طوال الأزمة لم يرد أى ذكر على الإطلاق لأمر هذه الرسائل، الأمر الذى يؤكد أن السر "كان فى بير" كما يردد المصريون.

ولعل الحذر البالغ فى أمر هذه الرسائل مصدر المشكلات التى تحيط بها ، فلم يكن أى منهما يؤرخ الرسائل - قبل الزواج - باستثناء رسالتين فقط منه ، الأولى تحمل تاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٠١ وهى واضحة ومقروءة ويتحدث فيها عن "كتب الكتاب" أى أنها بعد مدة من بدء العلاقة بينهما ، والثانية بتاريخ سنة ١٩٠٤. والواضح أنها كانت قبل إتمام الزواج مباشرة. ولا نعرف لماذا لم يؤرخا الرسائل، ولكن ربما اتقاء لاحتمال وقوعها فى يد غريبة أو تمر أمام عين متطفلة أو فضولية، وقد أوقعنا ذلك فى حيرة حقيقية ، فنحن لا نعرف على وجه التحديد متى بدأت المراسلات، ومن ثم متى وكيف

نما الحب بينهما ونضج، كذلك لا نعرف ترتيب الرسائل والردود عليها. ولكن يمكن أن نصل إلى ترتيب عام لها من حيث السياق والمضمون ودرجة الحذر.. فالحذر الشديد يمكن أن يكون فى البداية ثم يخف تدريجيا، وتأسيسا على هذا فإن الرسائل بدأت بتوقيعات أقرب إلى الشفرة مثل "مفهوم". "معلوم".. "المعهود".. "الخال" ، وكلمة "الخال" هذه تتضح من الرسائل لأنه كان يعتبر والدتها مثل أخته، وذلك لأنها كانت تعلم بقصة الحب بينهما وكانت تتمنى إتمام الزواج، ولكن الكلمة الأخيرة فى هذا الأمر لم تكن لها بل، للزوج الشيخ عبد الخالق . وفى معظم الرسائل كان يبعث إليها بالسلام ويتحدث عنها باسم "أختى".

ويمكن القول إنه كان الأكثر حذراً فلم يوقع أى رسالة باسمه صريحا، فقد كان يخاطبها "حضرة العزيز" والتوقيع "مفهوم"، أو "عزيزى الأعز" والتوقيع "أخوك" وهكذا.. ثم بعد ذلك بدأ يخفف من حذره، فيخاطبها "حبيبتى صفية" والتوقيع "معلوم" وصار أكثر جرأة فكان يوقع الرسائل باسم "عليك" وصار أكثر عشقاً فأخذ يوقع "صفيك" أو يخاطبها "حبيبتى الصفية الوفية" أو "حبيبتى صفيتى" .

أما هى فكانت الأقل حذراً ولم تلتزم الحذر فى غير رسالة أو رسالتين. ثم كانت تذكر اسمه أو اسمها فى الرسالة وربما الاثنين معا.. فتخاطبه "عزيزى الأعز الأوحد" وتوقعها "صفيتك" أو "عزيزى الأمجد على يوسف" أو "عزيزى المكرم على يوسف".

تكشف الرسائل – وليس فى ذلك مفاجأة[1]– عن أسلوبه السلس وتمرسه بإزاء أسلوبها العامى والركيك غالباً، حيث نشعر من الرسائل أنها تكتب بصعوبة وبمعاناة، فلم تكن كاتبة ولا صحافية ولم تتعلم فى الأزهر مثله، بل لم تدرس العربية ولكنها تعلمت الفرنسية، كذلك فإن خطها كان رديئا، ولكنه ليس أكثر رداءة من خطوط أيامنا التى نعيشها الآن، بينما كان خطه جميلاً وواضحاً . ولا نعرف هل كان ذلك سبباً فى قلة كتابتها إليه وكثرة كتابته إليها، أم أن الرسائل لم تصلنا كاملة..!! فرسائله تتجاوز ثلاثة أضعاف عدد رسائلها، وكان هو المبادر بالكتابة، فرسائلها – فى معظمها – ردود على رسائل وأفكار وكلمات قالها فى رسائله .. عموما فإن كل ما أتيح لى الحصول عليه ١٩ رسالة إليه منها وأكثر من خمسين رسالة بخطه إليها.

بعض رسائلها تتميز بوضوح الأسلوب – مثل الرسالة رقم ١٢ . مما يدفعنا لأن نتصور أن هناك من كتب لها هذه الرسالة المتميزة. ولكن الرسائل كانت جميعا مكتوبة بخطها هى.

وتختلف أقدار الناس وأدوارهم الاجتماعية ولكنهم لا يختلفون كثيراً أمام المشاعر والعواطف ، فها هو على يوسف الكاتب والصحافى والسياسى البارز، صديق الخديو عباس حلمى والمقرب من السلطان عبد الحميد، محب هائم وعاشق هيمان، حوله الشوق إلى كتلة من العواطف المتأججة والمشاعر الملتهبة مثل أى فتى يتلهف إلى رؤية فتاته، ويشتاق إلى كلمة

واحدة منها . إنه الحب الذى يغلب سلطانه كل سلطان، ويضعف أمامه الأقوياء، ولذا نقل عن ابن عباس أن "ذنوب العشاق ذنوب اضطرار.. لا اختيار".

٤

أتيح لى أن أطلع على هذه الرسائل فى أول ديسمبر ١٩٩٥، عبر ابنتىْ الشيخ على يوسف وصفية السادات، السيدة بثينة على يوسف إحدى أبرز العاملات فى العمل الاجتماعى والخيرى منذ الأربعينيات والسيدة ليلى على يوسف ، وأعطتنى السيدة بثينة نسخة كاملة من الرسائل المتبادلة بين والديها، وقد أشرت إلى تلك الرسائل ونشرت مقتطفات منها فى تحقيق بمجلة المصور - عدد ٨ ديسمبر ١٩٩٥. وكان المثقفون المصريون آنذاك مشغولين بقضية التفريق بين د. نصر حامد أبو زيد وزوجته د. ابتهال يونس. ورغم الملابسات المختلفة والمتباينة للقضيتين فقد وجدتنى مدفوعا لأن أقوم ببحث وتحقيق قضية الشيخ على يوسف وصفية السادات، خاصة وقد شرعت فى إعداد هذه الرسائل للنشر.

وهناك أربع رسائل لم أتمكن من نشرها، لتآكل خطوطها وصعوبة التحقق من كلماتها، وهى ثلاث رسائل من الشيخ على والرابعة من صفية. وقد آثرت أن أقدم الرسائل كما هى دون أى تدخل منى، فقد صارت وثائق لا يجوز لأحد التدخل فيها.

رسائل الشيخ على يوسف إليها



١

أخى العزيز الأعز

وصلنى كتابك الكريم، وقد ابتهج قلبى سروراً لما علمت أنك أنت الذى قرأت الكتابين المرسلين منى بالإسكندرية، وأنت الذى وضعت بيدك الكريمة الخطاب المرسل لى فى ظرفه وأنك تعلم المقصود من كتبى ومن كثرة زياراتى. نعم إنك المقصود أولا وآخرا ولا تلم على فى ذلك. ومتى كنت المقصود كان والدك وجميع من تحب من جملة أحبابى أيضا لأن حبيب بحيب حبيب. ولقد عدت إلى لومى عن زيارتك المنزل المقصود مرتين مع اعتذارى عنه. ولولا أن هذا الطرس يضيق عن شرح الحال فى هذا المقام لبرهنت لك على أنى كنت محقا فيما فعلت، وأننى كنت أحافظ على شرفك كل المحافظة وسأقص عليك كل ما فى هذه المسئلة عند اللقاء القريب إن شاء الله.

بقى على أن أعيد إليك القول بأن جميع أفكارى وأميالى وآمالى محصورة فيك سواء صدقت أو لم تصدق. لا أستغفر الله إنك مصدق ذلك لأن التيار الكهربائى المتدفق من جميع معالم الحسن والجمال التى خصك الله بها وهو التيار المؤثر على جميع حواسى وعواطفى لا بد أن يكون له رد فعل يشعر به قلبك الرحيم. وعند ذاك تفتكر أننى المتفانى فى حبك وحقك الطالب معك عيشة خالدا وهوى متفقا. فأرجوك أن تراجع قلبك عندما تريد أن تكتب لى خطابا مثل هذا. والسلام على روحى التى هى أنت فى حياة طيبة أفندم.

(معلوم)

٢

حبيبتى وصفوة فؤادى صفيتى

وصلنى كتابك الجميل اللطيف . وإنى أشكرك على كل كلمة فيه وأشكر عواطفك الشريفة على ما ملأت به الكتاب رقة وإخلاصا ومنة ولطفا، وأن الكلام الجميل من محبوب جميل ليفعل فى القلب من تصاريف الحب ما لا يفعله الدلال أو شرود الغزال بل أضعاف ما يفعله الجمال نفسه، وإن الصورة التى تفضلت بها على لهى طبق الأصل من فتوغرافية القلب حتى كاد القلب يطبق عليها لما ضممته إليها. وإن صاحبتك وأختها قد لاحظتا علىّ الشغف الزائد الذى تناولته بها وقد عذبتنى كثيرا حتى ناولتنى اياها فكانت عاقبة هذا العذاب عذوبة ما أبردها على قلبى الهيمان. وقد وضعتّها فى مكتبتى الخصوصية لأنظرها ما بين كل لحظة وأخرى وكانت فى يدى قبل أن أتناول الكتاب أقلب فيها بصرى وقلبى وأقلب عليها فؤادى وأحشائى الملتهبة تعللا بطيف المحبوب فى اليقظة بدل الطيف فى المنام. وقد لا يكفينى ما ترسلينه لى من القبل على صفحة خد الطرس شيئا لو لم تكن الصورة بين يدى أقبلها ساعة بعد أخرى. ولولا ذلك ما استطعت أن أنس تلك الهفوة التى فرطت من قلمك (لا من قلبك) بلا حساب. فكيف والحالة هذه تزهق نفسى من كمية قُبل لا تسمن ولا تغنى من جوع ومن ظمأ.

قولى إننى شره لا يشبعنى ولا يروينى شيئ. قولى كما تشاءين فانه لا يغنينى عنك شئ من لذات الخيال فى هذا

الوجود. وإن مكنتني منـك بـالذات تكونـي قد ضـاعفت إحسـان جمالك على محبك الولهان. أقدم لك أحسن تهاني القلب ولأختي أشـرف تحايـا الاحـترام مـن أجـل رمضـان وأسـأل اللـه أن لا ينقضي حتى يكون شلمنا مجتمعا بعقد القران آمين.

عليك

٣

حبيبتى صفية

وصلنى كتابك الجميل. وبعد فليس لكلامه مع المسلوب قيمة لأننى كنت حكيت له كل شيئ سألنى عنه وهو يضطرنى أن لا أذكر له بعض الأشياء لأنه يخبر بكل شيئ . أمثال خليل والمسلوب وهل يليق أن أجعل أسرار الجناب فى أفواه هؤلاء . قلت له فى خطاب سابق إننى حكيت له شيئا عن السيد البكرى وما جرى له مع الجناب فحكاها فى الحال للشيخ حسن وخليل وغيرهما فماذا تريدين.

ليلة عيد الجلوس تخلصت منه لأجلك فهل كنت تحبين أن أحبس نفسى معه وأحرم منك . سأسأله عن ليلة الأقباط وأذهب معه.

أما مسألة الأمس فقد سألته أن يعطينى كلمة نهائية لتحديد يوم العقد. وقد كلمته بما لم يستطع أن يفوه معه بكلمة فوعدنى أن يعطينى الجواب فى ظرف يومين. وحيث إن عبد الله العوامرى سيحضر اليوم إن لم يكن حضر مساء أمس فسأحيله عليه ورأيت أن أجعل الكلام قبل حضوره حتى لا يقول إنه مستعين به. وفى الختام أسألك قبلة المحب الصادق وأسلم عليك ألوفا وعلى والدتك المصونة.

أخوك

المخلص

وقرينك المحب

٤

صفية روحى وحبيبة قلبى ومالكة لبى الوفية

وصلنى كتابك الذى هو نفحة من جمالك ووفائك فزاد نار الحب اشتعالا وأنا أحلف لك بشرف حبك ووفائك أننى قضيت ليلة الأمس فى مناغاة بين الروح والجسد كما حكيت واستيقظت مرتين أشاهد صورتك بجانبى حتى أمتع نظرى بشيئ من الحقيقة الصورية بعد خيال الطيف وطيف الخيال. فيا حبيبتى إن قولك (فوالله يا روحى لولا المكاتبة بيننا ما عشت أياما) هو حكاية حال نطق به لسان الروح عن الجسم. فعيشى لى وكونى حياتى إلى الأبد. وأقبلك مثل تلك القبل فى اليقظة والمنام. والسلام على أختك العزيزة ألوفا.

عليك

ووفيك إلى الأبد

٥

حبيبتى الصفية الوفية

وافانى كتابك اللطيف وكله وعاء لإحساسات الحب الخالص. فأقبل على الرأس والعين كل كلامك وإن لم يكن علىّ حق فى شيئ لأننى كتبت لك ما فى ضميرى . نعم قلت وأكرر القول لك إن حبك هو الذى يأمر فأطيع لا أنت . فقولى لأمك انه يعصينى ويطيع سلطان حبى عليه، عساها تشاركك فى زعلك من هذه الكلمة. وإننى قد عرفت كيف أحرك ساكن حبك لى، فأحملك السلام اليوم إلى فلانة وغدا إلى فلانة لإننى أهيج بذلك عوامل حبك لى وهو ما لا أريد سواه.

إننى كنت أخطب بنت فلان وفلان لا لأدارى مصاهرتى لوالدك ولكن لأدارى غرامى بك وقد كاد يفتضح عند الناس أجمعين. لا منى ولا منك ولكن من أعدائنا الذين كانوا يختلقون ويقولون إننا اجتمعنا واجتمعنا واجتمعنا وقضينا ديون الغرام. حسبهم الله. والآن عرف الكل أننى خاطب مجد وجمال فليقولوا ما شاءوا. أنا خرجت يوم الجمعة مسرعا لأنه كان لابد لى أن أركب قطار الساعة ٢ بعد الظهر الذاهب للقبة ووالدك يعرف ذلك.

كيف سمح لك والدك بمخاطبتى أمس ومن كان معكم فى القاعة. ولما ركبنا معا استلفت نظرى للعربة. فقال أرأيت العربة اللطيفة ذات اللون الفستقى الغامق. إنها جميلة جدا. فلما مررنا عليها ونظرتك لا العربة قلتُ نعم إنها جميلة جدا ولطيفة

جدا وذوقها لطيف. وهو الذى قال للعربجى مر من جوارها .
ولما كنا سائرين ورجعنا وكنتم فى مقابلتنا وتقابلت الوجوه والأعين. كرر السؤال فقلت إنها أحسن عربة رأيتها وقد لحظنى كثيرا وأنا أنظر إليك. ولما ركبنا للعودة قلت له إنى انزعجت كثيراً لأننى ظننت العربة التى عبث جوادها هى عربتكم وحمدت الله بعد ذلك على أنها غيرها. فقال إن خيلنا هادئة. قلت الحمد لله على أنها هادئة (وهو لا يعلم أنها كانت تعبث بنفسى أكثر من عبث الجوادين السابقين). كل حفلة وأنت بخير.

أقبل وجناتك ألوف الألوف وأسلم على والدتك. وأسألك بحبها لك وحبك لها واحترامى لها أن تقولى لها إنه يعصينى ويطيع حبى وهو الذنب (الذى)[1] لا أنساه له حتى فى الجنة إن كنا من أهلها. فما أعظم هذا الذنب وما أكبره شفيعا يوم تقل الشفعاء.

عليك

(١) أضفنا هذه الكلمة رغم أنها ليست موجودة فى الأصل ، حتى تستقيم الجملة.

٦

حبيبتى صفية

أهنئك ألوفا بالعام الجديد الهجرى وأسأل الله أن يعيده علينا معا كما نحب ونشتهى.

حبيبتى أنت تعلمين مقدار حبى لك وشغفى بك وتعلمين أنى إن لم أف بوعدى فى الحضور الليلة المعهودة فذلك لأمر فوق كل أمر وهو أنى سهرت مع والدك للساعة المحدودة كما قلت لرافع هذا. وإذا توجهت فلا يكون ذلك إلا بعد ساعة أخرى وألبث عندك مثل ذلك أو أكثر فتكون الساعة بين ٨ و٩. فهل تريدين أن يكون مرورى من شارعكم فى مثل هذا الحين. وإذا رآنى من يعرفنى فما جوابى له وإذا علم أحد بخروجى من داركم هذه اللحظة فماذا يقول. وإذا سمع والدك بعد ذلك فماذا يكون. ألا تكون النتيجة أن نحرم من الاقتران الذى هو بغيتنا الوحيدة. ألا تعلمين أن أقل الساعة ٩ من هذا القبيل تؤثر علينا الآن أضعاف ما كانت تؤثر من قبل.

ألا ترين أعداءنا كثيرين ويتمنون أن تكون لنا هفوة كهذه. إنك لا تعلمين أنى ما نمت لحظة فى تلك الليلة وكلما فكرت أنك انتظرتينى ولو برهة من الزمن يكاد قلبى ينفطر. هل تحتاجين إلى كتابة مثل هذه توضح أعذارا كهذه . ألا يكفى أن نطوى هذه الأعذار بين الجوانح . أنا إن كنت وعدت أنى أزور فى تلك الساعة فذلك لأن الحب استخف بنفسى فوعدت. وإن كنت أخلفت الوعد فذلك لأن حساب الشرف وحساب قرب

الاقتران وحساب الهواجس الكثيرة التى تخطر ببال من لا يجازف بناموس حبيبته كل ذلك أقعدنى عن التوجه وعندك مندوحة للقاء وهى أن تزورينى كما تعلمين وهناك غاية الأمن من كل وجه.

أنا إذا لم أزر والدك فهو لأنى أخاف الغلط ووضع رجل على رجل فأكدر خاطره ولا أحب ذلك. المؤيد الفرنساوى قد أبطلناه من أول السنة لأسباب أوجبت إيقافه وأهمها حصول علاقات سياسية لا يمكننى تداركها والمترجمون متساهلون. خالك يسلم على أخته ألوف ويقبل وجنات بنت أخته ويلثم فاها آها .

الخال

٧

حبيبتى صفية

جاءنى كتابك اللطيف فقبلته بأهداب عينى ولثمته بشفتى قلبى وقرأته بمهجتى واتخذته حجابا لكبدى أن يذوب من الجوى ولعله هو لا يذيبه. يرينى السيد وأريه استعدادا لخدمته كثيراً وقد نقلت له كلاما عن الجناب ونقلت للجناب كلاما صيرهما ممنونيته من بعضهما، وكان يريد مقابلته لطلب يختص بالشيخ سليم فمهدت له ذلك وأفهمته مع هذا وذاك إن الولد المخلول لا يحب زواجى بك وقلت له لا تصدق أبدا إن فهمت منه اهتماما. لأنه أولا يكره صفية فلا يحب أن تتزوج برجل ذى شأن ومقام. وثانيا يخشى أن يظهر الفرق بعد زواجى بين معاملته لزوجته ومعاملتى لأختها. وثالثا يخشى أننى ألعب به وأقذف به من حالق لأنه يعلم أن هفواته كثيرة وأنى أقدر على إسقاطه فى الوقت الذى أريد. فأعجبه كل هذا الكلام وقال صدقت.

واستشارنى فيماذا يعمل بطلب أسماء لابن أخيه فقلت إنى لا أعطى رأيا تاما لأنك أعلم بمصلحتك فى هذا الموضوع وأردفت ذلك. فراق لنفسه وقد كان مصغيا تمام الإصغاء فانعطفت على مسألتنا فرأيت منه بشاشة ولطفا وارتياحا وقلت موعدنا صدور الحكم فى قضية الحارس فقال نعم. نعم، حاضر . حاضر. يا ليت ركوبك العربة كان أمنزلنا وإن شاء الله يكون قريبا. بس حاسبى على نفسك من الفرح.

حبيبتى. أخبرنى والدك بما قال لك فى مسئلة المصـاغ وبالألفاظ التـى وردت بينكمـا وهـى علامـة أخـرى وكأنـه كـان يريد أن يقول اسألها. كنت أظن أن صاحبتك الإنكليزية أخبرتك بكل شيئ ولأجلك قد فعلت ما فعلت ولكنى تأسفت كثيرا لأنها لم تحضر مأدبتنا وإن شاء الله أرى فرصة قريبة لدعوتها وأخواتها إن أحببت .

أقبل وجناتك وألثم ثغرك وأهصر خصرك وو.. إلخ. اسمحى لى بمقابلة. ومتى جئت أخبرى رسولك ليعرف المحل والوقت، أستحلفك بحبى لك أن لا تبخلى بها. وأسلم على أختى ألوفا.

محب صفية

وحبيبها

٨

حبيبتى الوحيدة

أخذت كتابك وأنا فى أشد الانتظار له بعد تلك الصدفة الجميلة التى جعلتنى لا أعى ما أخاطب به صديقى الذى كنت أتفرج به على المنزل فأنت كنت تدوسين على الحمام وأنا قلبى كان يرفرف كأنه ذلك الحمام الذى تدوسينه. دعينى من كل ما يتعلق بالمويلحية الآن لأنى مشغول جدا ولكن أكبر إهانة لى أن تقولى إنك طلبت عزيزة ورددت وقيل لى كيت وكيت. والنهاية أنى أرسل لك مع رافعه هدية صغيرة كنت مستعدا لأن أسلمها لك يدا بيد تذكارا من سفرى فتفضلى بقبولها وأفيدينى عنها حتى أطمئن بوصولها. وأنا ما فهمت بقولك هل الولد له عادة أن يزورك صباحاً. إذا كان الغرض ذلك المخلول فنعم يزورنى فى بعض الأيام لا كلها. هل تستطعين أن تزورى صباحا، أو كما تقولين فى آخر خطابك لا يمكنك أن تزورى إلا على نية الاستيطان. أسأل الله أن يكون هذا قريبا. وأقبل الآن وجناتك وأسلم على والدتك ألوفا.

أخوك

٩

حبيبتى وروحى

وصلنى كتابك الذى قرأت منه هواجس قلبى وأسأل الله معك أن يهديه . وأما توجهى لمنزل المخلول فذلك بعد ما كرر الزيارة والإلحاح والعريس بل ترجانى كثيرا وقال إن من مصلحتك أن لا تقاطعه فى الوقت الذى تقاطع فيه فلانا لأنه فى الحقيقة لا يحب المصاهرة ولكنه مضطر أن يعمل لتحقيقها. فإذا قاطعته بنفور ظاهر منك كانت له مندوحة إلى العمل عكس الغرض، وعلى هذا أنا صممت أن الاطفه وأزوره كل حين تعللا معه الكلام فى الموضوع محترسا من خباثته.

أما المخلول الطويل فإنى لم أكلمه كلمة ولكن صرت إذا رأيته لا ألتفت إليه وقد جاء أول أمس عندنا وجلس وقام فما كلمته كلمة واحدة ولم أخاطب أحدا ليخاطبه ولا أدرى ماذا يقول للرجل فيكدره به. أما الفتوى فقد اطلع عليها أحمد بك ولا بد أن يكون أخبره بأمرها لأننى بعد اطلاعه لم أره وقد علم بها البكرى من غيرى وسألنى عنها فقلت نعم. زرت صاحبتك مرتين فى هذا الأسبوع الأولى يوم السبت الماضى والثانية أمس ظنا أنها تكون زارتك وما كنت أعلم بانتقالكم من محلكم إلى الجهة الأخرى وسأمر الليلة لأخبرها بذلك فقط ولا أدخل.

إذا أردتم السفر للإسكندرية فأخبرينى قبل ذلك بيومين لأدبر طريقة سفرى وأخبرك ولكنى مع ذلك فى ريبة من تمكننا

من المقابلة لأننى لا أعلم الآن كيف نتقابل.

أسلم على حبيبتى وأختطف منها ملايين القبل بشوق لا يعلم قدره غير الله وأسلم على أختى المصونة ألوفا.

عليك

١٠

حبيبتى صفية

وصلنى مكتوبك الأول ومكتوب اليوم وأشكرك ألف ألف شكر وأقول لك إننى لما رأيتك يومئذ على حين غفلة كاد قلبى ينفطر واستولى على حزن لم أملك نفسى معه وبت ليلتها كالملسوع لا أستقر على جنب وكانوا يستغربون من حالتى حتى قالوا قبل أن تتفسح فى الجزيرة كنت على غير حالة الكدر الذى عدت بها. وحكيت هذه العبارة لصاحبتك أمس. وكنت أود أن أسمع وأقبل كل ما تقولين ولكن ما الحيلة إذا كان الصبر - وأنا من أصبر الناس - يخوننى، وعلى كل حال أصبر رغم نفسى وأنفى ويفعل الله ما يشاء.

أخبرنى ذلك الباشا أمس بعبارة (العجانب) وما رأيتها للآن وطلبت من أحد العمال إحضارها لى اليوم. دعينا من أقوال الجراند. وأخبرك أنى لست متوجها للتياترو ولأننى لا أريد أن أرى الرجل فضلاً عن أنى لا أعرف كيف أراك وكيف أنظر إليك فى مثل هذا المحل. وإن المنام طويل ولطيف ويدل على شيئ يقضى إن شاء الله وسأزور المشهد الحسينى كأمرك وأتوسل به إلى الله فى قضاء حاجتنا.

أنا فهمت من صاحبتك ضعف قلب والدتك وعسى الله أن يأتينا بقوة تكسر الصخر حتى يختص الأسد بغزاله قريبا وهو يقبله ملايين ويسلم على والدتك ألوف الألوف.

تقويم المؤيد ودليل المولد، واصلان مع رافع هذا ومن قلبى لقلبك قبلة القبل.

صاحب الغزال

صفيك

١١

عزيزى الأعز

وصلنى كتابك الكريم فشكرت حسن رعايتك وجميل وفائك ومحافظتك على إحساساتى التى تنحصر دائماً فيك وفى بناء كل ناموسك وسعادتك الأدبية لك ولى فقط ويقينى أنك ستراقب هذا فى سرك وعلنك دائما لأن قلبى يرعاك ويراقبك فى كل حركة وسكون. تكلمت كثيراً مع يوسف أفندى فى شأن الوقفية الجديدة ، والخوف كله من تعطيل والدك.

والدك يظهر لى الانعطاف التام المستمر فالله يحسن العاقبة.

السيد الصهر كان منزعجاً منك - الكلام فى سرك - وقال إنك أشرت له بإصبعك ساعة نزول عروسه كمن يهدده - والذى روى له ذلك مرسى[1] - فقلت لا تخف ، والضمان علىّ بعد كلام طويل جدا كان فيه يظهر الطفل المرتجف (فى سرك جدا) فهل حصل شيئ من هذا أو هل تفوهتم بكلمة أو أبديتم إشارة . أرجو أن تخبرونى بحقيقة الواقع بلا مواربة ولا إخفاء شيئ . أقبل وجناتك وأسلم على والدتك وإن شاء الله سأذهب لصاحبك الإنكليزى فأعتذر له عن التقصير والسلام.

أخوك

---

(١) كان أحد العاملين فى منزل السادات.

١٢

حبيبتى صفية

وصلنى كتابك الأعز وإننى أعلم مقدار مشغوليتك الآن كما تعلمين مقدار مشغوليتى وأن النوم لم يزر أجفانى الليلة إلا بعد الساعة الرابعة بعد نصف الليل ورأسى تضرب الآن بالصداع ولكثرة الفكر والقلق.

سأتوجه عند المخلول وأعلم ماذا جرى ولكن كان فى عزمى أن أجيئ عندكم اليوم ولا أزال مترددا ولما علمت خبر توجهه أمس بالتليفون أخبرت العريس بك بالتليفون وهو خاطب المخلول بالتليفون أيضا وقال له إنه حاضر عنده فأجابه أن السيد عنده فقال انتبه لعاقبة أمرك لأن الجناب يرمى عليك كل مسئولية وأفهمه أن عنده كلاما مهما مأمورا بتبليغه إياه وكل هذا حتى لا يتفق معه على تدبير فكرة للتخلص.

وأرجوك أن تخففى عنك مشغولية الأمر محافظة على صحتك التى هى عندى أعز شيئ ووالدك الآن لا بد أن يكون فى ورطة يشعر بشدة عاقبتها إذا خالف الأمر ولا أظنه يجسر على المخالفة بعدما رأى شدة الضغط عليه وأيضا لم يكن من اللائق أن لا يعطيه موعدا لأن مقام المتكلم معه يستلزم كل ما حصل وهو كل ما يمكن إجراوه فى أول مرة وأقبلك ملايين وأسلم عليك كثيرا.

حبيبك

١٣

عزيزتى وشقيقة روحى صفية

وصلنى كتابك الأكرم الأعز وقد فهمت كل ما به وأرانى فى هذه اللحظة مضطرا للاقتصار فى الكتابة. وأنا لا أظن أن السيد يرسل كتابا أو مبلغا ولكن هى حيرة تتردد بين جوانحه ووساوس يصرفها عن نفسه بأخذ آراء أولئك اللئام ومن الكذب المحض ما زعمه حموى من أن مرتضى بك خاطبه أو بعث له رسولا فقد كنت سمعت ذلك وسألت البك أمس فقال إنه كاذب بل أكون مجنونا لو خطر على بالى أن أوسط حموى فى أمر زواج بنت السادات إلخ. وسأتوجه لصديقتك والخلاصة أنى لا أريد أن تأخذى درسا مطلقا وإذا علمت أنه عاد لإعطائك درسا كان هذا درسا لى من الآن والسلام على أختى ألوفا وأقبل وجناتك ملايين واكتبى لى كل صباح بما عندك فإنى كثير القلق عليك راغب فى أن تحيطينى كل ساعة بما أنت عليه والسلام.

أخوك
وزوجك
وحبيبك

١٤

حبيبتى صفية

تقبلت كتابك الشريف وقبلته بأهداب العين وقرأت بنورها المنبعث من سويداء القلب حبا فى كاتبه . وقد فهمت الحكاية ونفسى مطمئنة بأن والدك لا يخدعنا الآن. الحقيقة أن الولد المخلول لم يشتر شيئا من مصطفى بك صادق بل اكترى الحلق الذى لبسته ليلتئذ. وقولها أنى أرجعت الحلق لأنه لم يعجبنى برهان ظاهر على ذلك. بعدما قرأت الجواب وقبل أن أكتب هذا طلبت المقاول سآمره أن يبدأ غدا بهدم واجهة المنزل طوعا لأمر والدتك الكريمة. ولو كانت المسألة واقفة عند هذا الحد لجعلت نفسى فاعلا من جملة الفعلة الذين يباشرون الشغل فى الهدم والبناء وحتى أنال بغيتى (ومن طلب الحسناء لم يغله المهر) سلمى لى عليها سلام ولد بار وأخ مطيع وقبلى لى وجناتك تقبيل عاشق ولهان إن استطعت إلى ذلك سبيلا وإلا فدعينى أقبل وأقبل وأقبل والسلام.

أخوك

الذى يكاد يطير قلقا وانتظارا

١٥

حبيبتى الصفية الوفية

شرفنى كتابك اللطيف ولكن اليأس على العاقل حرام.
وبيننا وبين مواعيده الأخيرة أيام قلائل فاصبرى كما أصبر واعلمى أننا طالبان صادقان وفيان وأبيان على غاية واحدة فمهمها كانت الصعوبات فى الطريق لابد أن ندرك متمنانا وبغية قلبينا. إن كانت النساء أوفى من الرجال فلأنك منهن ولكن ينبغى أن تعتقدى أن فى الرجال من يصدق ويفى ومهما قل الأوفياء فأنا من ذلك القليل واسألى قلبك يصدقك الخبر.
أرسل لك مع رافعه أسورة لتقيسيها قبل أن أرسلها للجواهرى هنا يركب لها حبات اللؤلؤ. فإنه يظهر لى أنها أصغر من القياس ولكن القياس هو الميزان الصحيح فقيسيها وأعيديها لى لأتممها أو أرجع الزوج للصانع الأصلى فى أسيوط يزيدها كالمطلوب.
أقبل وجناتك وأسألك بالحاح أن تمنى بمقابلة وأن تفيدينى بذلك إن تفضلت وأسلم على والدتك المصونة.
ماذا قال لك مأمون وهل قال لك إن ناظر المدرسة احتفل بزيارتى احتفالا لم يكن يخطر على بالى.

حبيبك

١٦

حبيبتى وشقيقة روحى صفية

وصلنى كتابك الأعز الأكرم. إننى شعرت بمثل ما شعرت به عند المقابلة التى مرت كالبرق وقد خطف قلبى منك خاطف غير شفوق فقلت لا بأس لتفعل به ما تشاء فاليوم هو عندها وغدا هى عندى وسأفعل بك أضعاف ما فعلت وتفعلين بقلبى يا قاسية القلب.

المخلول قابل السيد مرات آخرها مساء أمس وقد كلمه كلاما كثيرا وقال له لماذا أنت واضع عندك الجواهر فقال الست أمينا عليها فأجابه لست جواهرجيا والغرض أن تقضى فى الأمر بلا تردد. قال لست مترددا أنت ترمينى بدائك. وإنى قد أخذت الجواهر وسيان إن كانت فوق أو تحت وأمثال هذه الكلمات واتفقنا على أن نصبر لآخر الأسبوع ثم ننقض عليه بوطأة ينتهى بها الأمر فلا تقلقى. كان السيد منذ يومين فى الجزيرة وكنت نازلاً أتمشى من العربة فوق الجسر الموصل للأهرام فلما اقترب منا أوقف العربة وسلمنا عليه وركبت معه إلى ما بعد الكوبرى ولم أخاطبه فى شيئ . العوامرى حضر عندى ورأيت منه اهتماما كبيراً ووجوده نافع وإن شاء الله لا يذهب حتى يتم الأمر. إن شاء الله أزور صاحبتك اليوم. ما تشانين فى العمارة يكون. أسلم على أختى ملايين الملايين والثم ثغر بنتها بلطف الولهان العاشق الخاطب.

(الخال)

١٧

حبيبتى صفية

ما انتظرت خطابك وأبطأ مثل هذا الخطاب الذى كنت صباح كل يوم أترقب مسيره فلا أراه والحمد لله على سلامته وسلامتك وسلامة قلبى الذى يحن عليك حنين الطفل للمرضع. كتبت لى المرة الماضية بأنك كنت مع صاحبتك الإنكليزية للنزهة فهلا قصدت فى فرصة مثل هذه أن ترى محبك الذى يسعد برؤيتك ويشقى بالحرمان.

سيدتى وحبيبتى. أشكر حضرة والدتك المصونة على شريف إحساسها نحوى ولو رضيت لفعلت بك ما فعل عشيق دى ساكس وعلى الدنيا كلها السلام.

حبيبتى لا أعرف فقيهة اسمها زينب وإنما كنت أرى منذ زمن فقيهة عمياء لست أعرف اسمها ولكن منذ سنة ولم أرها وربما تجيئ ولا أراها وإنما لا تمنعينى أن أسأل عن السبب. لما حضرت كان ذلك للزيارة فقط ولأجل أن استقرب البعيد. من هم الذين كانوا يمرون عليه وهو جالس أمام منزل الأعرج. أنا لم أضمن الولد المخلول فى شيئ. ليست قرينتى التى كانت راكبة ورآها والدك ولكن هى حرم الشيخ حميد باشا وبنتها حضرتا من الإسكندرية لأجل أن ألزم الهلباوى بالمرافعة فى قضيتها أمام الاستئناف. بالى واحد وقلبى واحد وربى واحد ولا إله إلا هو ولا محبوب لى غير صفيتى وقبلة فؤادى الوفية.

أقبل وجناتك ملايين وأضمك حتى تئن أضلاعك وأسلم على والدتك المحبوبة سلام أخ صادق لأخته الحنونة.

أخوك
وعليك
وصفيك
رغم أنف الزمان

١٨

حبيبتى صفية

وصلنى الكتابان معا فى صباح هذا اليوم لأن كتاب البريد تأخر فى البوسطة ولم يجئ إلا فى هذه الساعة فقرأتهما معا مسرورا فرحا مفسراً للمنام بكل ما يوافق حالتنا. والغريب أن الأودتين اللتين ستفرشان للنوم واحدة شرقية وواحدة غربية ولكن بقدر الإمكان سيكون فرشهما أحسن مما رأيت فى المنام. وعلى كل حال فهل أنت آتية لحبيبك أو للأثاث. كل ما ينقصنا تجهيزه الآن يكمل بعد. لا بأس عليك فارفعى رأسك أمامى ولا تخجلى فإنما أنت مالكة القلب وأنا أعلم أن قلبك لى فلا شيئ يخجلك منى ولنجلس معا على الكنبة ثم على السرير ثم ثم وليفرح قلبانا معا ولنعش بكل سرور وسلام ورفاهية إن شاء الله تعالى.

المنام كله لطيف وليس فيه إلا ما يطلبه العاشقان معا. الجناب لم يسأل عن الرجل بكلمة سوى ما قلت لك فيما يخصك.

أما كون المسألة تتم قبل سفر الجناب فلا أظن لأنه بالأكثر يمكث فى الثغر لغاية ١٥ يونيو وفى هذه المدة القصيرة لا يكون تصليح البيت انتهى ولا تأثيثه. وأى شئ نحتاجه من الوجود أو عدمه لأن تداخله رسمى غير ممكن وغير الرسمى معلوم لنا.

لا تعطى المفهوم كتابا وأنا سأكلمه بحيث لا يعرف

أنك كتبت لى كلمة عن وساطته. أخبرينى عن رأيك بإفصاح. قولى لى ما تتصورين ولو تخيلا ماذا عسى أن يفعل والدك عندما تتم المسئلة وعلى الوجه المتفق عليه بيننا. قولى كل ما يخطر لك على البال. لأنه ينبغى للعاقل أن يحسب الشيئ فى طريقه ثم يأخذ الاحتياط له فى سبيل التنفيذ. واسمحى أن أقبل وجناتك بلا عدد ولا حد وأن أضمك ضمة العاشق الولهان وأن أسلم عليك بملء قلبى يا حبيبة القلب.

صفيك

المخلص

١٩

عزيزتى وصورة روحى صفية

من يوم أن ودعتك إلى الآن لم أحظ منك بمكتوب وقد كتبت لك فى الإسكندرية ثم فى مرسيليا وهذا الثالث بعد وصولى جنيف هذه البلد الجميلة التى لم يكن يلذ لى شيئ فى الدنيا غير أن تكونى معى فأتمتع بك وتتمتعين بما أبدع الله من محاسن الطبيعة فى هذه الجنة الفيحاء. والآن أنتظر البريد يأتينى بل انتظر بين كل لحظة وأخرى منك خطابا أقبل طرسه بفمى وسطوره بعينى ومعناه بقلبى ويدى فوق كبدى الحراء مخافة أن تسيل.

عزيزتى. لا تمضى لحظة ولا طرفة عين إلا وأذكرك فيتجلى فى مرآة خاطرى بل أمام بصيرتى وبصرى خيالك مجسما فأراك بكل ما أودع الله فيك من محاسن وآيات جمال باهرات. كأنى أراك حقا وأتلذذ بمد يدك بل كأنى أسمعك تقولين لى كما كنت تقولى إرحمنى إرحمنى. فأذوب لوعة وأسى وأقول من يرحمنى وأنا عاشق الجمال والحسب والشرف والمجد الصميم.

أسأل الله أن يقرب لى أيام لقاك وأن يمتعنى بك قريبا قرينة محبوبة محبة سعيدة بى وسعيدا بك. وأقبل الآن وجناتك وثغرك وأرشف ريقك الخمرى السكرى وأسلم على والدتك ملايين الملايين.

محبك وحبيبك

غريب الديار

٢٠

حبيبتى صفية

وصلت الإسكندرية مساء أمس وأنا فى شغف لأخبارك. أتمنى أن تصلنى ساعة فساعة فأرجوك أن تفيدينى عن صحتك وعن حركاتك وسكناتك .

الصغير حضر الإسكندرية منذ ثلاثة أيام وعاد صباح أمس وكان يؤمل أن ينال أربا من الجناب هنا مخفيا عنى سفره فلما لم يتمكن اضطر أن يحضر إلى فى الإدارة ويحكى لى رحلته فعاتبته على أنه لا يزال يسيئ الظن فى من لم يقصر فى خدمته وقد خجل إلا أن ما يطلبه لا ينالـه لعدم مناسبة الوقت ولعدم وجود المسوغات. وإن كنت سأبذل جهدى حتى لا يظن أننى معطله لعدم تعريفى بغرضه (والصغير فى ظنونه كالكبير). ما علينا خصوم والدك فى القضية أجروا الأطيان كلها من حيث لا يعلم حتى إذا عورضوا تقدموا للمحكمة بصورة الحكم وأنفذوه رسميا.

أقبل وجناتك ملايين وأسلم عليك مثل ذلك.

صفيك

٢١

سيدى الأعز الأوحد

وصلنى كتابك الكريم وقد لقيت من أصحابكم ما راقنى وصيرنى حنونا جدا ورأيت فيهم من الأخلاق ما أعجبنى كثير.

أما الحديث الذى جرى بينى وبين سيدكم فقد بشرت به صاحبكم الصغير ليكتب لكم به ومضمونه الرضاء النهائى. وقد أظهرت الزعل منه فصار يلاطفنى كثيرا والآن أقول لكم الكلام الأخير أنى سأنيلك مرغوبك فى أقرب وقت. لذلك شرعت أستعد للمسألة من كل وجوهها وسنرجع إليه (مع الشيخ الوسيط الأصلى) بالمهر والنشان بعد يومين أو ثلاثة كما اتفقت ليلا مع الشيخ المذكور. لذلك أبشرك وأستعجلك فى إرسال ما يكتب لك عند صاحبك الصغير اليوم أو غدا.

وسأرسل لك فى وقت آخر ما طلبته الآن وتقبل قبلى وتحاياى لك ولولدك الداخلى.

مفهوم

٢٢

سيدى العزيز الأوحد

تلقيت كتابك بالشكر الجميل وهديتك بالشكر الأجمل لأن فى طيها ورقة الحب الذى أعرف قدره ولكنى عجبت من تهنئتك لى برمضان فقط دون أن تدعو أن يكون رمضان الثانى خير جامع لنا بك.

أتعشم أن يكون بيننا ثالث يهنئ كلانا به والآن أعود فأطالبك برد جوابى الأخير الذى لا بد أن يكون فيه تمام إقناعك والسلام عليك ألف مرة. ختام

أخوك

الذى عن رأيه لا يتحول

٢٣

الأستاذ الفاضل

السلام على من اتبع الهدى وبعد، كل يوم أنتظر فرصة لأزوركم فلم أجد فأنا فى غاية القلق لذلك فربنا يجود علينا بأحسن وقت واقبل عذرى فى عدم الرد عليكم من أجل الزيارة لأنى لا أحب أوعدكم ولا أجيئ وقد وصل الجواب ومنى عليكم مزيد الشوق والسلام ختام

مظلوم

٢٤

عزيزتى وحبيبتى صفية

كنت أحسب هذا الحساب والعتاب الذى قرأته من خطابك وجوابى عليه هذا الجواب الذى بطيه . وأنا لما توجهت للتياترو وكان غرضى أن أبحث عن أحد أصدقائى لأجلس معه فى لوجه وأتمكن ساعتئذ من التطلع إليك بعد ضياع لوجى. فلما وصلت إلى باب التياترو ووجدت شخصا روميا اسمه جورجى قال إنه منتظر السيد.. إلخ فرأيت أن لا أدخل ولا أبحث على أحد لأننى صرت أكره رؤيته.

صار همك فى المسألة أن تحسبى حساب والدك مخافة أن يغضب عليك. وهل لما يغضب ينفعك مثلى . بهذه الكلمات مسحت كل ما سطرته يداك من قبل فى هذا الباب. فلا عتاب. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

مفهوم

٢٥

حبيبتى صفية لى

شرفنى كتابك الذى شرحت بتلاوته صدرى وقد انتظرته أمس فلم يجئ والخلاصة أنى ألاحظ عليك مثل ملاحظتك على بإطالة الكلام مع المخلول وإن كانت هذه الملاحظة ليس فيها أقل ريب وأنا أسمع قولك فاسمعى قولى. ولكن سأكتب لك بكل ما يلفظ به آمالى فاكتبى لى بكل ما يصلك عنه مباشرة أو بواسطة. وهو شخص خداع لا يعجبك قوله إن أحب شيئ لديه أن.... وأنا بالصدفة قصدت صاحبتك الإنكليزية فأرسلت لى أمها تقول إنها ذهبت لزيارتك فما أشد ارتباط قلبينا حتى مع الوسائط. حبيبتى أهنئك بإقبال شهر الصوم وأسأل الله أن لا يمر الشهر الذى بعده إلا ونحن معا وإنى أودعك للسفر بعد غد إلى أصوان مقدمة لاحتفال الخزان فإن مصلحة الجريدة تقتضى أن أسبق المسافرين بيومين أو ثلاثة . لأتمكن من مشاهدة المعالم قبل ساعة الاحتفال الذى لا تسمن ولا تغنى من جوع فى النظر والوصف. وإن استطعت أن تكتبى لى غدا فلا تبخلى وسأكتب لك فى السفر بالواسطة المعهودة وستكون مدة الغياب أسبوعين تماما. أقبل وجناتك تقبيل من لا يحب فى الدنيا سواك وأسلم على والدتك المصونة ألوفا.

عليالك

٢٦

حبيبتى صفيتى

وصلنى كتابك الجميل وأسأل الله أن يعيد أمثال هذا المولد علينا بالخير والرفاء والبنين آمين. فهمت كل ما تخشين من أمر والدك عند إرادة إنفاذ الغرض وسأخاطب الصغير بما يلزمه من الكتمان وسنتدبر فى الأمر يومه لأن الاحتياط إنما يؤخذ وقت التنفيذ ونحن متمسكون أن لا تقوم فى وجهنا عوائق بإذن الله. قابلت والدك فى الصيوان الليلة الأولى لأنه قام مسرعا للسلام على وأخذ بيدى تفضل تفضل إلخ وجاءت القهوة فى خلال ذلك فشربتها معه ولكن عقب ذلك قمت على الفور وقلت إنى أريد أن أتفرج على الخيمة وتركته ودخلت وجلست حيث رأيتنى ولم أعد إليه وهو اغتاظ جدا على ما بلغنى . وفى الليلة الأخيرة مررت عليه ولم ألتفت إليه وجلست داخلا كثيراً لأن الحفلة كانت رسمية وبعد الفراغ منها جلست داخلا أيضا بعيدا عنه إلى أن قام. لم يلتفت إليه الجناب مطلقاً ولا وجه نظره إليه وقد التفت للصغير كثيرا وهو يعتقد أن هذا كله بمساعىّ وممتن منى كثيراً - ولكن هو كما وصفت - وعلينا أن نداری أموره حتى يتم أمرنا.

صاحبتك مريضة وقد زرتها مرارا ولكنى لم أدخل لأنهم لا يقبلون زوارا . قلت فى آخر الخطاب (قلبى يحن تشوقا ولا يدوم إلا سواك) فهل هذا سبق قلم أو سبق قلب. وعلى كل حال أقبلك ملايين وأسلم عليك مثل ذلك.

صفيك
المخلص

٢٧

حبيبتى صفيتى روحى

وصلنى كتابك الشريف الكريم اللطيف. وأنا قد ارتحت جدا من جواب الشيخ لأن قاعدة عملنا ستبنى على ذلك الآن.

وأخبرك يا حبيبة روحى أننى مطمئن وصابر ما دمت مطمئنة وصابرة ونفسى أسيرة نفسك وروحى التى أشعر بها هى أنت فكلى مطمئنة .

٢٨

صفيتى الحبيبة وحبيبتى الصفية

أقبل وجناتك ملايين الألوف سلاما وأسلم عليك ملايين التحايا تقبيلاً وأرشف ثغرك العذب فى خلسة من الرقباء حتى لا يزعجنا مزعج ولا يوجعنا تيقظ نائم. المنديل ربما كان غير الذى رأيته ولكن من جنسه ودستته ووقت أن كلمنى عليه كان معى منديل من دستة أخرى مثل الذى أرسله لك الآن فاضطررت أن أطلب من المنزل الذى أرسلته وقتئذ. إن قولى فى أمر النشان صحيح ولكن طلبه موقوف على العقد لأنه لا يصح أن يقال فى البراءة خطيبة فلان وهو إنما يطلب باسمى وهذا كان باتفاق مع صاحبى الكبير فى الآستانة بدون أن يعلم به والدك ولا غيره. تكلمت مع الجناب عن الرتبة وهو كتب ثالثا وسيخبره متى جاء بأنه كتب وأما القضية فإنى مجتهد فى أمرها ولا شغل لى الآن أهم منها والناس كلهم يعلمون. وأنا أيضا ألوم نفسى على ما فرط به القلم مع ذلك الشاعر المخنث وإنما رأيت أن أقول كلمتين فيه إرضاء لخاطر البرنس.

الصغير كان اشتكى خليلا لى وأنا كنت زعلته أمام والدك وما كنت أعلم أنه صار فى صالحنا أو مال نوعا وقد مضى على ذلك نحو أسبوعين وأكثر. أنت أرسلت لى أم الروبى ثم هو للتوسط فى قضية كبرى تخص أقاربهم فى فم البحر وقد فعلت امتثالا لأمرك أكثر مما كان ينتظر إلا أن هؤلاء الناس ربما أفسدوا بأيديهم ما أصلحته لهم لأنهم للآن لم

يقدموا لدائنهم ما اتفقنا عليه مع كونه ترك لهم أكثر من ١٥٠٠ جنيه.

حبيبتى متى ضمنا بيت واحد وعلت أطوارى وأخلاقى ووقف قلبى على حبك تحققت أن كل ما يصلك من أعدائك وأعدائى الذين لا يرون أن نكون لبعض. فاطمننى قلبا وطيبى نفسا وابعثى كمية وافرة من القبل كما أنى أكلفك أن تسلمى لى على أختى العزيزة ألوفا. أقبلك أقبلك أقبلك.

(عليّك)

٢٩

شقيقة الروح أنت يا صفية

وردنى كتابك الكريم فاليك أشواقى مضاعفة وتمنياتى مضاعفة ألف مرة . وأما السيد الصغير فقد حضر وقال إنه تكلم معه بقوة وقال أريد أن تعطينى جوابا نهائيا سلبا أو إيجابا فقال والدك إننى والله راغب فى إعطانه ولكن يوجد شيئ خفيف عند الجماعة أعمل الآن لإزالته (يعنى أنكم تتمنعون قليلا وهو يريد إقناعكم) فقال له السيد لا تقل هذا فانا أعلم أنك أنت صاحب الأمر والشأن لا غيرك فقال لا تفتكر أننى ممانع ولكن أمهلونى بعض أيام قلائل وعلى هذا تركه وانصرف. ولكن سأجعل غيره يعود إليه وقد كان عندى بالأمس على بك أحمد وذكر لى شينا من قصة المسألة الحاصلة عندكم وسألنى ماذا يعمل لنرجع الرجل من غيه. فقلت هذا الشيئ المعجز لأن الرجل يحاول أن يعقد عقد زواجه على المرأة وينفذ ذلك إذا ضويق. غير أنى أريد منك تفصيلا كثيرا ولا أدرى لماذا لا تكتبين لى بتفصيلات هذه الحوادث. هل تخشين منى أو من قلمك أو من الصالح المشترك بيننا فى كل أمر يخصكم. أقبل وجناتك وأسلم على والدتك وأرجوك أن لا تماطلى فى المكاتبة.

أخوك

معلوم

٣٠

حبيبتى صفية

ما أسفر علىّ صباح يوم منذ جئت إلا انتظرت أن يأتينى منك كتاب، لعلمى أنك تذكريننى كما أذكرك ولأنك عودتنى فضل السبق بالسؤال والعطف ولو أن قلبى معى لعطفت ولكنك تملكتيه وتصرفت به كما تشاءين فلا شيئ ينتظر منى من هذا القبيل. فلما جاءنى اليوم كتابك الكريم تقبلته بلهف المشوق وقبلته قبلة العاشق للمعشوق ولو أنه تضمن غير ما يروق.

حبيبتى. أنا سمعت بعض الشئ عن هذه الست بل جاءنى يوما من الأيام شخص وقال إن خاطبة جاءت إلينا تخطب باسمك أختى (وأنا والله ما كنت أعلم أن له أختا قط) فصرفته بلطف وراجعت تلك الست الخاطبة فأنكرت وقالت أنا كنت أخطب لشخص آخر سمته لى وإنما جاء ذكرك عرضا وهذه الواقعة حقيقية فربما كان لها أمثال ولكن إذا كنت موسوسة أو لا تعرفين من أنا حتى الآن أو تنكرين مسكنك من القلب وأخذك له نهبا كما يأخذ الظافر والمنتصر أسلاب المغلوب فلا حول ولالى.

حبيبتى . إن صاحبتك عيشة هانم شديدة الغيرة عليك لطيفة الشعور نحوك محسنة بالعناية بأمرنا معا. وهذه الغيرة وتلك الإحساسات اللطيفة هى التى جعلتها تسرح خيال الظن أو الوهم إلى حركات تلك الفتاة ولكنها والله يعلم حركات شغل

وعناء يعطف عليها قلب الجلمود. وإن الذين نزلوا فندقها من المصريين أمثالى عرفوا منها هذه الصفات ولو كانت لهم صحف يكتبون فيها لكتبوا مثلى واتخذوها أعظم مثال لنبوغ الفتاة وبلوغها مبلغ الرجال فى العمل مع الثبات والاستمرار . ومع ذلك فأنا أسامح صديقتك وأرجوك أن تسلمى عليها سلام احترام وإعزاز وإن شاء الله متى كنا فى بيتنا أحرارا (أنا وأنت ومتى ذلك يارب) وتقابلت الوجوه أعاتب عيشة هانم على غلوها فى غيرتها عليك إلى هذا الحد وأشكرها عليه. أقبل وجناتك ملايين وأرشف ثغرك الباسم مثل ذلك وأضم خصرك حتى تتألم أضلاعك وأسلم على والدتك المحترمة ألوفا.

أخوك

٣١

عزيزى

وافانى كتابك الكريم أمس فتقبلته وقبلته وما كان يشغل بالى شيئ مما تخيلته أنت لأنى معتقد بخلل الشخص وقلت له إنك مجنون أو طفل. ولما قلت له أنا الضامن فسرت له ذلك بأننى معتقد أن ذلك من وساويسه وأوهامه ولهذا الاعتقاد ضمنت له أن لا يحصل له شر خصوصا وهو قال إنها إذا عملت شيئا فإنما يكون ذلك لعلمها وأن وراءها ظهرا قويا هو أنت. فقلت لا تخف واطمنن وأخذت أسكن روعه كالأطفال حتى اطمأن وهو حقيقة كان مضطربا جدا ويكاد تظهر عليه نوبة عصبية ولما طمنته فرح وسكن قلبه واطمأن باله. وما سألتك إلا لأزداد علما بما أعتقد وقلت ربما رفعت بيدك كذا أو كذا عند النزول فتوهم خادمه مرسى ما توهم وقال له ما قال. وما دام عنده مرسى وأم سيد فلا يرتاح له ولا لقرينته بال وأنا واثق من كل ما أبديتيه وأعلم مقدار حبك لى وحصر آمالك فى كما أنى لك كذلك ولهذا تألمت جداأمس لما رأيتك وأختك سافرتى الوجه فى العربة ، نعم ربما كان سفورك من أجلى ولكن كان معى غيرى وأنا أغار من النسيم عليك، فاجعلى دائما هذا نصب عينيك وقبلى لى وجنتيك إن استطعت ألفا ألفا، وعليك وعلى والدتك السلام.

أخوك

صاحبك الصغير جاء أمس فقط وما استطعت أن أقبلك لكثرة من كان عندى وربما زرت أصحابك الآخرين اليوم.

٣٢

حبيبتى وشقيقة روحى صفية

شرفنى كتابك بأحسن وداع من أشرف محب حبيب.
وأما مواعيدى فهى مواعيد الذى يوفى ولو لم يكن من بنى الوفاء ولذلك لا ينبغى لك أن تشبعى إلا بتحقيق الأمل الذى سيحققه الله بمشيئته .

الصغير تكلم معى فى المسألة فكان كلامه باليمين والإيمان أنه على عهده فى الإجابة إلخ إلخ. سأكتب لك يا حبيبتى كلما سنحت الفرصة ولكنى سأذكرك بقلبى كل لحظة وكل طرفة عين لأنك أنت منتهى آمالى وأشهى وألذ أمانى.

أسلم على أختى ألوفا وأقبل بنتها ملايين ملايين وأسأل الله أن يعيدنى لها سالما حيث تكون فى منتهى وأسبغ نعم الصحة والعافية والسرور. سأرسل لك جزما من باريس مع المروحة. كونى مطمئنة من جهة المخلول فلا شيئ يمكن أن يعرفه. وأختم خطابى بالسلام عليك ألوف الألوف والقبل مليارات يا حبيبتى صفية.

(عليك)

٣٣

حبيبتى صفية

وافانى كتابك الذى كنت أنتظره باللحظة والدقيقة وأنا متأسف غاية الأسف لضياع الفرصة التى كانت سانحة ولكن الله عوضنى عنها برؤيتك ساعة مرورك فوقع قلبى فى دهشة وتاهت عيناى خلفك وظهر على الارتباك فكان الذى معى يكلمنى من حيث لا أعى ولا أسمع ولذلك سألنى مندهشا وظن بى الظنون. لم أنس ما أمرتنى به من زيارة الأصحاب الإنكليز ولكن لى بضعة أيام لا أستطيع مبارحة المنزل إلا فى وقت ضيق ولقضاء غرض مع المهندس والمقاول وتاجر الحديد (سقوف العمارة كلها من الحديد) إلخ فاعذرينى وسأزورهم اليوم أو غدا. ظننتك أنك رأيت مامونا يوم زيارتى مدرسة الطب فسألتك السؤال السابق وما فهمت أنك تسأليني عنه إلا الآن. لم أزر قسم سنجر فى المعرض إلا نظرا من بعيد حيث تذكرت ذلك الملتقى اللطيف ووالدك معنا راض. وأما ما كتب فى الجريدة فهو إعلان من نفس محل سنجر وقد نشر فى الجرائد كلها بلفظ واحد فلا تظنى شيئا. قلت أنعم وأكرم بإصهارك وما فهمت الغرض. أنا أطلب بإلحاح أن تفتكرى فى مقابلتى فلا تحرمينى من حظوة قريب جدا وأقبل وجناتك ملايين الملايين وأسلم على والدتك المصونة .

المحب الحبيب

٣٤

شقيقة روحى وصفاى العزيزة

وصلنى كتابك الألطف وقد صرت أقرأ سطرا وأرشف من كوبتك رشفة كأنما أرشف لماك العذب وإننى عبد غرامك وإحسانك وجمالك وسأكون كذلك إلى الأبد لصفيتى العزيزة وها هى الصورة مرسلة. وحيث إنهم متعجلون فلا بأس من إرسالها وسأخبر صاحبى أيضا بهذه الرسالة استلفاتا لنظره وأقبل حبيبتى قبل العاشق الواله وأسلم عليه بالملايين.

العبد الخاضع
والمحب الخادم الأمين
صفى عليه

لو عجل الأخ خروجه دون انتظار النتيجة لكان أحسن لأنه غير مربوط بشيئ سابق ولأنه يكون معذورا عند الجميع وفى هذه الحالة تكون الشكوى منك فقط. وإذا شاركتك لا أن تنتظر.

٣٥

عزيزتى وحبيبتى صفية

وصلنى كتابك اللطيف الشفاف عن حبك الصادق وجمال أدبك الفائق وعلمت ما حواه من قصة المخلول وأمانيه الذاهبة أدراج الرياح ولكن استغربت لأنك ذكرت لى فى خطابك أنك كنت فى العام الماضى الخاطبة لأحد الاثنين دون أن تخبرينى ولذلك كنت أظن مسئلة عبد الحميد جديدة بالمرة. ما علينا أنا ما فهمت سؤالى عمن كنت أتكلم معه صباح يوم الجمعة سرا. لأنك إن كنت تعنين والدك فأنا ما قابلته وإن كنت تعنين ذلك المخلول فلا أتذكر أنه كان عندى صباح يوم الجمعة. وإن كان هو دائما يجيئ ويروح ويتكلم فى أتفه المسائل والغرض أن يعرف حالى معه ومقابلتى له وقد كدرته كثيراً لمصاحبته بالمويلحى وتكلمت مع والدته من أجل ذلك فطردوه ووقعت بينهما الشحناء فكتب عن ابنه ما كتبه ورددت عليه أول أمس ولعلك قرأت هذا وذاك . ولابد أن تعلمى قصدى من إبعاده عنه لأن هذا وسواس خناس وهذا مخلول.

أنا سألت رسولك عن ضيفتك لا لعلمى أنك تبخلين بالجواب على ولكن لأنك ذكرت مقابلتها لمن أشرت فأحببت أن أعرفها حالاً. ولما كان قد جهل وأنت عرفت جهله من كلامه فلماذا لم تذكرى لى اسمها فى خطابك بدلا من ملامك.

حبيبتى أقبل وجناتك كما يشاء الشوق وأهدى والدتك المصونة ألف تحية وسلام وأحب أن تنظرى فى أمر مقابلتنا.

أخوك

المحب

٣٦

حبيبتى الوحيدة صفية

وصلنى كتابك اللطيف ولى يومان أنتظره، فقبلته بـالفم والعين وسأفعل بإشارتك وأكلف نفسى مخاطبة والدك ثانيا وإن كنت قد كرهت أن أرى ذاته. وقد جاءنى الولد المعهود منذ يومين ورجانى أن أساعد والدك فى قضيته لأن حالتها رديئة ، فقلت له كلا. إنه شخص لا يستحق أدنى مساعدة. فقال هل تريد أن أقول له ذلك فأجبته أنت حر فيما تقول وتنقل. ثم إنك قد عدت إلى الكلام عن منزله وأنه أوفق محل لعقد الكتاب فأنا معتقد ذلك ولأجل هذا لا أزال أواليه وأظهر لـه المودة ولأجل هذا جعلته يقاطع المويلحية لأن مودة ذلك الشيطان الرجيم فى ظروف كهذه أو بالقرب منها مضرة كبرى وعقبة كؤود. وسأشير إليه ولكن الإشكال ليس فى إجراء العقد حتى نعد لأنفسنا المحل اللائق لإقامتنا فهل تبقين فى منزله أو تعودين لمنزل أبيك أما الأول فعندى من أصعب الأمور وأراك توافقين عليه وأما الثانى فغير مأمون. وأريد أن تفيدينى برأيك فى هذه النقطة. وبقى بعد ذلك احتمال رفضه مراعاة لخاطر صهره فإنه ربما حصل منه ذلك ولكن ذلك بعيد وعلى بعده فقد تكلمت مع علي بك أحمد وقال إنه يقبل التوكيل ويجرى العقد وإنه وعدك بذلك قبل وإنما هذا الغرض لا يتصور وقوعه إلا فى منزلكم وتكونين مستعدة للخروج بعدها بقليل.

وعندى فكرة أخرى وهى أن والدتك تتوجه يوما إلى

منزل الشيخ حسونة وللضرورة تقابله بالذات وتحكى له حالة وجودكم مع عاهرة فى المنزل وأنها مراعاة لشرف البيت ومحافظة عليك ورعاية لناموس الحياة تحب زواجك ووالدك يمتنع وتستشيره فى طريقة الخلاص من هذه الحالة بزواج يعصم طهارتك فإذا لان تعرض عليه أن يدبر هذا الأمر بنفسه. وهناك طريقة أنفذ من هذه وهى أن تذهب إلى سراى القبة ونعرض الحالة كما هى على الحرم أو الوالدة ليتكلم الكبير كلمة مع والدك. نعم وإن كان فى هذه صعوبة إلا أنها أسلم الطرق وأنسبها لشرفك ومقامك وبعدها إن لم يحصل شيئ أقول كلمتى الأخيرة.

حبيبتى لا أريد فى الدنيا سواك فساعدينى بالفكر والإرادة وأقبل وجناتك ألفا.

أحبك

أكثر منك

٣٧

حبيبتى صفية قلبى وموضع حبى

بكل شكر قلبى وامتنان روحى تناولت كتابك الكريم بالتهنئة وإننى أشكر بكل احترام أختى وأتمنى أن أوفق لتهنئتكم قريبا. آمين يا رب العالمين وخالق قلوب المحبين.

وبعد هذا وذاك سأمتثل أمرك ويكون اليوم آخر أيام لبس الجبة التى أمرت بترك لبسها. أما السيد فحاله معى على ما يظهر حسن وقد زارنى أمس مهنئا وكانت مظاهر وجهه حسنة وإن كنت أشعر بأنه كان يود أن تسبق رتبته رتبتى وأنا فى الآستانة لحصل ذلك ولكن خفت أن يتكدر وينصدع خاطره. وصديقى الذى له يد فى هذه الرتبة سعى جهده قبل مجيئنا لرتبته لكن السلطان صارت تعز عليه الرتب العلمية للمصريين. وبعد مجيئنا للإسكندرية رجوت الجناب العالى أن يكتب ثانيا للمابين للطالبا رتبة السيد[1] وقد كتب وأكثر من عبارات الرجاء والتفخيم فيه والسيد يعلم ذلك لأننى أخبرته بمضمونه يومئذ.

حبيبتى قولى كما تشائين فى مسألة الشربات ولكننى استحلفك بأعز شئ علىّ وعليك وأنتظر الجواب.

لماذا لم تبعثى لى بكمية من القبل فى الوقت الذى هى أشهى مطلبى.

(عليك)

---

(١) الجناب العالى هو الخديو عباس حلمى، والخطاب يكشف تدخل على يوسف لدى الخديو ليكتب لرجال السلطان عبد الحميد بضرورة منح رتبة للسيد عبد الخالق السادات، وفعل ذلك على يوسف بالقطع من أجل صفية.

٣٨

حبيبتى صفية

وصلنى كتابك نور العينين. أما تمام المنزل فكان أمس ولا شيئ غير تعليق نجفة أو لمضة وكل شئ كان يحضر أمس وقد حضرت الثلاث أخوات (ألين وإستير ومريانة) وشاهدن المنزل وأعجبهن كثيرا ولاحظن بعض ملاحظات خفيفة سأنفذها اليوم. ومن هذه الملاحظات أن فرش السرير الثانى كان بنى فقلق غيره بأبيض فأريتهن فى الحال الناموسيات البيضاء. ولاحظن على شريط أصفر موضوع فوق أعلى السرير الكبير وكنت أنا ملاحظا أيضا فقلت أرفعه اليوم وما عدا ذلك فقد أعجبهن كل شئ. نحن مع الصغير بأحسن الوسائل وأحزمها وسأبذل كل جهدى فى الاحتياط معه لأن ما كتبه قرأته من قبل مرارا وتكرارا. أنا لا أحب أن أحرمك من الماء البارد ولكن أحب قبل كل شئ أن أمتعك بصحتك . وبمناسبة الماء البارد أقول لك بالأمس لبثت طول النهار فى البيت وجئت بغدائى هناك من السوق (عيش وجبنة وبطيخ) وحيث إننا كنا استحضرنا الثلاجة فقد وضعت فيها الماء والثلج وشربت ثم قلت يارب. كيف أمنعها من الماء البارد وهو لذيذ وكأنك كنت معى أو كتبت بروحك ما أملاه قلبى عليها. أقبل وجناتك وأسلم عليك كما تشتهين .

صفيك

٣٩

حبيبتى صفية

وصلنى كتابك اللطيف. أما مسألة الجواب وحكايته مع والدك فأخبرك به تفصيلا حتى لا يكون عندك شيئ. الجواب كتبه المويلحى حقيقة وهو قال مضمونه للعريس وهذا أخبر البكرى به تهديدا له من قبل المويلحى. وبالصدفة لما زرته قبل أربع ليال ذكر هو والعريس هذه العبارة أمامى وكنت ليلتها بالصدفة سألت مصطفى صادق كما أخبرتك فتجاهلت كل شيئ وأخذت أشتم فى المويلحى وأسبه وأخيرا كلفنى البكرى أن أخاطب والدك فى هذا الشأن لأدافع عنه بأنه باع الفلمنك واشترى البرلنتى. وليلة الاحتفال سألته بعدما خرج البكرى هل وصلك كتاب من أحد مجهول فقد أخبرنى فلان أن فلانا أخبره بمضمونه وبالكاتب له وهو فلان، وأنه أرسل أو سيرسل لك عبد السلام أخاه ليخبره شفاهاً، فاندهش والدك وقال نعم جانى خطاب وما أطلعت عليه سوى خليل منصور. فقلت له إن البكرى كلفنى أن أخبرك بخبره وأن أقول لك نعم إنه باع ولكن اشترى بدل الفلمنك برلنتى، أولا يليق ببنت السادات وقرينة البكرى لبس الردئ. فقال لابد من تحقيق المسألة فأجبته أن المويلحى خباص ومفسد والمسألة سهلة التحقيق. وفى الأثناء دعا بخليل وطلب أن يحضر الجواب فأحضره وأطلعنى عليه (فأستحلفك بحبى لك وحبك لى أن تخبرينى بخط من هو ولأى شيئ وضعت الحاشية الأخيرة التى هى ضد الوكيل مع أنها لم

تكن فى أصل الجواب) وبعدما قرأته أخذت أسب للمويلحى وقلت إن البكرى لا يعلم شيئا عن مسئلة السمسم. وبينما نحن نتكلم دخل حسين بك البارودى فقال هذا هو الذى يحقق لنا المسألة وسأتكلم معه. هذا كل ما جرى واعلمى يقينا أن الخطاب من المويلحى بعد هذا التفصيل ، بعد هذا وذاك وقبل هذا وذاك أشرت لوالدك من مسئلتنا فقال حاضر حاضر. لابد أن يحصل مرغوبك . ثم قال إنها كانت ذاهبة أمس لمنزل البكرى للإفطار فقلت لها أخبريه أن لا يحضر إلا والعريس معه وأردت التورية بك ولكن هو ربما لم يفهم وأنا سألت البكرى عن هذه الكلمة على لسان والدك فقال نعم هى قالت وأنا ما فهمت مراده ثم قال وعندى خبر أكيد بأن السيد قال لشخص لا أخبرك عنه أنا لا بد أن أعطى فلانة لفلان فهل عندك رائحة من هذا الكلام. أخذت القياس وسأرسله اليوم لأنه جاء فى خطاب ثان عنه أمس. وأقبل وجناتك كما تشتهى نفسك ونفسى وأسلم على والدتك ألوفا. من تلك المحاورة اللطيفة لم أزر البيت الذى أشرت له مخافة أن يلحقك وسواس منه فلا حاجة للتأكيد.

أخوك
مفهوم

لم يكن كلامى عن شراء الحلق جدا بل هزلا.

٤٠

سيدى الأعز الأوحد

أنا فى غاية الأسف لعدم تمكنى من المجيئ الليلة الماضية وذلك لأنى كنت بعيدا عن القاهرة فى شغل مهم جدا وما عدت إلا الساعة ١١ مساء. وأسأل الله أن لا يجعل لى عائقا الليلة من هذا القبيل الذى لا حول ولا حيلة لى فى رده إن اقتضى الأمر. أسلم عليك وعلى الصاحب الصغير سلام المشتاق المتأسف فاقبلا عذرى والسلام.

أخوك
المعلوم

٤١

حبيبتى صفية

وردنى كتابك بما أملاه عليك قلبك الطاهر وحبك المحبوب فأشكرك عليه شكر العين لنورها والحياة لروحها وسأعمل بمشورتك فى مسئلة الفضية فلا أتم لوالدك عملا إلا إذا تم رغبتنا وحقق أمنيتنا . وستعلمين أننى لا أسافر حتى يكون الله قد وفق لنا بالخير الذى نتمناه عاجلا. فاضرعى إلى الله معى بقلبك كما أضرع إليه بقلبى وهو أشفق على قلبين ملأهما حبا خالصا وودا صافيا.

واقبلى فائق احتراماتى وقبلى لى وجناتك إن استطعت وسلمى على والدتك ألوفا وأرجوك أن تخبريها بمقابلتنا حتى تمتلئ حنانا علينا فإن حنانها من المسهلات وقت الحاجة إليها والسلام.

محبك وحبيبك

مفهوم

٤٢

حبيبتى صفية

ما أحلى حساب البربرى الذى تتوهين عنه فى خطابك فهو كان بدار الحب وهو الذى سقاه حتى ترعرع شجرة فى القلب لكن متى حضرت أعيد هذا الحساب من أوله إلى آخره ولا يخلصنى منك بل ولا يخلصك منى صياح بنت الأخت وقت تمزيق ثيابها. أما قلت فى خطاب سابق "أنت على رأى المثل إن طلتها تمزق ثيابها وتفعل مثل ما تريد ولكن ركك على لم الشمل فأنا إن شاء الله أحضر مساء غد وعسى الله أن يمن باللقاء والالتقاء. أما الخاتم فلا يكون لى لأنه عند "لاتس" وإن أردت أن تريه يوما قبل أن يصوغه فإنى أطلبه منه لهذا الغرض ثم أعيده إليه.

حبيبتى. أسألك بحبى لك وحبى لك وحبى لك وحبك لى أن تخبرينى هل علم أحد منك بيمين المخلول وكتابته أم لا. فإن لى فى هذا الأمر كلاما معك ولا أريد أن تأخذى درسا على أحد إلا إذا أردت درس بالحساب البربرى فإنى أعلمك أياه كلما شئت درسا فلا يمضى زمن حتى نكون مثل بعضنا.

أخوك

أسلم على أختى ألوفا وأقبل وجنات بنتها ولو تخشى وجهنا والسلام.

مفهوم

٤٣

حبيبتى صفيتى

وافانى خطابك الذى فهمت منه أمر والدتك فى مسئلتنا ولا حاجة لأن نفتكر فى شأنها ما دمت أنت قادرة على تنفيذ الغرض وقت الطلب بل من مصلحتنا أن تتظاهر هى وقتئذ بعدم موافقتك على رغبتك حتى تبقى مستريحة معه. أما أمر السفر فلم أبت فيه أمرا لأننى فيه على مسئلتنا ولا أقدر أن أسافر إلا بعد ما يظهر أمر فيها. إن كان برضى والدك أو أبقى لأتمم الأمر بدونه ولا أسافر إلا بك للأستانة . أنا أبحث الآن عن منزل ومتى وجدته أخبرتك به لتتمكنى من رؤيته وبعدئذ نسرع فى إعداده. وأنا قلت لصاحبتك كلاما تقوله لك وسأتوجه لها لتزورك. وأما عن ذهابى للتياترو فقد سها على أن أخبرك به سهوا ولم نفكر فى رواحنا ثانيا. سأتوجه يوم الجمع حسب أمرك.

أقبلك ملايين، وأسلم عليك مثل ذلك، ولأجل خاطرك سلمى لى على والدتك التى تريد أن تزوجك لغيرى سلما للوصول إلى . إن عقلها كعقل أبيك.

صفيك

٤٤

حبيبتى صفية

وصلنى كتابك اللطيف الظريف الخفيف، والدك رغم أنف تكبره مبتهج مسرور بالنشان وكل من قابله يذكر له الحديث الذى جرى بينه وبين المنعم يوم العيد والدرس القاسى الذى ألقاه على المخلول أمامه والتعهد ليس الغرض منه أن المخلول يخدمنا ولكن لا يكون لئيما فيفعل فى السر ضد ما يقول فى الجهر ويكون من صالحه التنجيز . ووالدك الآن أقرب منه فى كل وقت ولكنى أؤخر الكلام حتى لا يقول الناس إنى فعلت كذا وكذا من أجلك كما يقولون الآن (حتى اللورد ورئيس النظار قالا هذه الكلمة) فأنا أؤخر القول ريثما ينسى الحديث. قلت لك من أجلك فعلت ومن أجلك سأفعل كثيراً فارجوك أن لا تيأسى وأن لا تبخسى أفكارى.

وقد قلت لك إن إعطاء النقابة لوالدك كان من رابع المستحيلات لأسباب كثيرة لا يسع الورق سردها ولو بقيت النقابة فى محلها الذى كانت به أو لو ذهبت إلى بيت مكرم لما كان لى أمل بها فى المستقبل وبعد أن آخذك آخذها لك فافهمى ولا تعيدى تكرار الحساب البربرى.

حبيبتى أنا مشوق مشغوف لأن أراك فى هذه الأيام فافعلى كل ما يمكن أن يرينى إياك قريبا وأفيدينى وأنا ما ذهبت لبيت البابلى منذ أشرت على بعدم الذهاب وبالصدفة لم أتوجه حتى فى العيد لمنزل سامح (سامحينى من ذا الكلام) أنا فرحت

من زعل السيد مع الغيرة لأنه هو السبب فى تردد نسيم (هذا الغلام الدنيئ) على والدك وقد أنبته كثيرا على أخذه إليه فى الأيام الأخيرة. وأنا عندما أراه أنقبض وأستاء جدا ولا أكره رؤية أحد مثل ما أكره وجهه لأنه مومس مفسد نمام. وفى النهاية أسلم على أختى وأستميحها فى تخميش وجه بنتها بالقبل وفى هصر خصرها بالضم والسلام.

الخال الذى يحب بنت أخته

٤٥

حبيبتى العزيزة صفية

وصلنى كتابك الذى كنت أنتظره حتى طلبته . والملاحظات التى أبديتها كلها حق ولذلك سألتك عنها وقلت لك ماذا العمل فيها، ولكن ذلك الولد المخلول كان عندى منذ يومين وسقت له كلاما بين الهزل والجد لأجس نبضه فقال نعم أنا مستعد ولكن بألفاظ يرتاب فى مطابقة اللسان فيها القلب. ولذلك عزمت على أن أراجعه ثانيا بشبه الجد وأن أعين له يوما حتى إذا كان لسانه كاذبا يظهر كذبه ثم أخبرك بالنتيجة الأخيرة.

وقد كان فى عزمى أن أخاطب والدك فى هذا الشأن أمس ولكن ما باليد حيلة نسأل الله أن يهيئ الأسباب.

لاحظى أن صديقى شفيق بك رئيس الديوان الإفرنجى الخديوى صار جارا لمنزلكم أى فى المنزل الذى لحظتنا فيه، فاحذرى أن تطيرى الحمام مرة ثانية.

محبكم المخلص

٤٦

حبيبتى ومالكة قلبى وروحى صفية

وصلنى كتابك ولا أظن الرجل يقدر على رد الصندوق. أما كونى لم أحضر معى المخلول فذلك حتى لا يقول ما كان يقول عند مسئلة النقابة. وقد قلت له إنى لم أحضر معى وسيطا لأنى لم أرد أن أتوسط لك إلا بك ولا أمل لى فى سواك. وأرجوك أن تخففى ما بك من الوجد والبكاء، فإن الأمل الآن أقرب إلينا من الرجاء على كل حال. أسلم على أختى وأقبل وجنات ونهود وسرة بنتها وأقول لها اطمننى وانتظرى الفرج القريب.

الخال العاشق
الولهان

٤٧

حبيبتى صفية

وصلنى كتابك الأحَب إلىّ من نظر القمر فى الليلة الظلماء والصحراء البهماء، وإنى أسفت أشد الأسف على عدم رؤيتك يوم زرت منزلكم لأنك كنت بغيتى الوحيدة من هذه الزيارة كما أنت قصدى وكعبة أملى من كل زيارة لكم. ولولاك لهجرت منزلكم هجر الأسير قصر الملك (لا يمكنى أن أشبه بغير هذا) وأسفت الآن أضعاف ذلك لأنك كنت منحرفة المزاج جعله الله الصحيح المعتدل على الدوام. الولد المخلول يظهر الغيرة والمحبة والإخلاص والسعى فى هذه الأيام أضعاف ما كان يظهرها وسببه أننى خدمته خدمة صغيرة (رآها كبيرة جدا) لدى من تكبر عنده الخدم وهو لذلك قال ما قال. زارنى منذ أيام مأمون وقال لى إنه لا يريد الزواج بفلانة. فأنا لاطفته بألفاظ وأظهرت له عدم التداخل مع ذلك وهو الحامل لى على أنى لم أتوجه منزلها حتى لا أكلف التداخل وهو لا يعنينى لأن الشخص نافر كل النفور ولعل له حقا.

أسلم على أختى وأقبل وجنات بنتها العزيزة التى هى فلذة كبد الحب وحبة القلب. فإن لم ترض بالتقبيل حضنتها قسراً وأخذت خصرها حصرا وفعلت كيت وكيت ولو ملأ صياحها البيت والسلام.

أخو الأم
وعاشق البنت
(مش غريبة بالله)

٤٨

حبيبتى صفية

وصلنى كتابك الكريم وقد أدهشنى ما فى الكتاب طيه ولست أظن من يكتبه غير شخص مطلع على أسرار الولد المخلول. وأهم شئ فى الموضوع البحث عن "الصيغة" حقيقة أن كانت بيعت أم لا. ويخطر ببالى أن الكاتب له هو الولد كامل لأن يصحبه الآن كثيرا ويمكن أن يكون للمويلحى دخل فيه وإن كان يبعد أن يشير لى ولك بما فى آخر الكتاب. أما الخط فهو مغير وليس بخط أصلى لأحد كما يظهر من تكلف تغيير الحروف.

وعندى خبر بمسعى المخلول لجعل السيد وصيا على الولد وهى حيلة لمسألة الزواج ولكنى أصرفها من فكر المخلول بواسطة لا يعلم أنها منى. وقد أخبرنى السيد بزيارة العريس والبكرى وهذا دعانى للإفطار عنده الليلة فاعتذرت بوجود مفطرين عندى. وسأبحث عند مصطفى صادق عن مسئلة الصيغة ، وأخبرك وأرى من صالحنا تقديم الجواب للسيد ليقرأه الآن فربما ظهر أثره فى الحال. وهو لا يمكن أن يظن أنه من قبلنا لأنه ظاهر فى غير الجانب فيه مصلحتنا لكن إذا قرأه يحدث عنده تأثيرا سيئا من جهة المخلول وجماعته وينثنى إلينا كثير. أما ما قلته فى آخر خطابى فهى نزعة غيرة من قلبى لا باعث عليها من الخارج وأتمنى لو أستطيع أن أضعك بجسمك وثيابك وأثاثك داخل قلبى فلا ينظر إليك سواى. فلا

تحاسبينى علـى ألفـاظ كهذه واعلمـى أنـى عاشـقك، والعاشـق معذور فيما يقول.

معلوم

أقبل وجناتك ملايين وأسلم على والدتك المصونة ألوفا.

مفهوم

لابد من إطلاعه على الجواب مهما كان الحال.

٤٩

صفيتى الحبيبة

لم يأتنى منك اليوم كتاب. فهلا تزالين فى وساوسك التافهة أو اقتنعت بأن الذى يحمل العناء من أجلك أربع سنوات ينتظر الفرص ويستهل الفصص ويتحمل رذائل أبيك وسخافاته ونمائم الناس وأقاويلهم؛ جدير بأن يكون محل ثقتك إلى الأبد.

هذا شيئ والشيئ الجديد أن والدك يرسل الآن كثيراً لمرسى ليعيده إلى خدمتك وهو لم يجبه انتظارا لأمرى فهل يوافقك أن يعود وهل عندك ملاحظة فى ذلك وهلا يكون من وراء عودته تنافس مع حامل هذا الكتاب أرجو إفادتى. أقبل وجناتك وأسلم على والدتك كثيرا وأسألك بحبى عندك أن ترى فى مقابلتى بأقرب وقت رأيا وتفيدينى به.

محبك

وحبيبك

٥٠

حبيبتى الحبيبة الراضية الغاضبة والغاضبة الراضية صفية

وصلنى كتابك الشريف هلالاً لعيد أكبر وبشيرا لحظ أوفر. وكنت أحب أن تصدقى كلامى ويطمئن قلبك له ولو لم يطمئن ابراهيم إلا برؤية العين. وعلى ذلك سأريك وأريك وأريك أنى صادق وهذا خطه مع هذا فاقرأيه وأرسليه وفيه الموعد بين. وأرجو أن لا يلبث عندك إلا بقدر ما تقرأينه.

النشان المجيدى الأول أمر عظيم جدا فهو ليس ككل الرتب والنشانات ووالدك سعى عليه كثيرا فى الأستانة وطلبه له الجناب الخديوى مع ما طلب للعلماء فلم يتيسر فلا تبطرى وتلك المسئلة كان من المستحيل فى الوقت الحاضر مجيئها لوالدك. فإما أن تبقى فى محلها أو تعطى لمكرم أو تعود للبكرى. وهى هنا قابلة للانحلال والتحول بخلافها فى المحلين الأولين فما كان هو خير ما يكون ولكن إذا كنت مثل والدك تحكمين على الشئ بمجرد الغرض فلا حول ولا حيلة . وأما اللؤلؤ فلم يضحك الرجل علىّ فالذى جاءنى به الغيرة والوصف هو هو ولا يضرك إن كان يوجد خير منه. فالمستقبل بيننا وأنا لا أرسل لك الخاتم الآن لأنه عند "لاتس" الجواهرى ليوسع حلقته وإنما أرسل لك خاتما لطيفا فيه جعلان من أنفس الجعالين وقد حاول كثيرون من عارفى الآن أخذه بثمن غال فلم تكن له قيمة عندى إلا أن يكون لك وصفته عند "لاتس كانون" وأرسل لك زوج الأساور. فاقبلى هذه وذاك هدية العيد واسمحى لى أن

أقبلك قبلة العاشق الولهان والخاطب المنتظر منذ ثلاث سنوات والراغب الذى يضرب ليل نهار أخماسه لأسداسه والذى يفعل لأجلك كل شئ ويفعل بك إن شاء الله كل شئ . وأسلم على أختى كثيراً جدا واعلمى أن ما تكبدته فى هذه الأيام لأجلك يكبر على كل كبير غيرى. ولو كان القرطاس يسع التفصيل لفصلت ولكن كله يخلص فى الغسيل يا صفية.

أهنئك بالعيد وأسأل الله أن يجعل أيامى المستقبلة كلها أعيادا بك.

من المحب
إلى الحبيبة

٥١

حبيبتي وصفوة روحي وريحانة حياتي صفيتي

أود لو أكتب لك كل لحظة خطابا وأن يأتيني منك خطاب. وبعد الذى كتبته لك صباحا افتكرت أن نكتب تلغرافا أرسل لك صورته لتكتبيه بخطك حتى يصلح الحكومة اليوم لنحفظ به خط الرجعة وإن كنت قررت مع الهلباوى أن نسكت بضعة أيام وهو مسافر اليوم فى الزقازيق وسأطلعه على صورته فى المساء وأخبرك بما يكون بعد وأسألك هل كانت النقود فى البنك باسمك واسم أختك معا وهل أنتما متساويتان أو لكل واحدة منكما نقود خاصة .

وأقبلك بين شفتيك وآخذ لسانك غصبا لأمتص من حلاوته ما يذهب بمرارة الصبر الذى أعانيه. وإن كان كل مر من أجلك حلوا وكل عذاب فيك عذبا وكل نار يؤججها الشوق إليك فى قلبى بردا وسلاما.

أقبلك أقبلك أقبلك من كل قطعة من جسمك الشريف هياما وحبا وإخلاصا حتى أجن فيك أو أموت والسلام.

عليك

٥٢

حبيبتى صفية

أكتب لك هذا آخر ما أكتب قبل السفر ولا حاجة لأن أبلغك إحساسات ودواعى لك، فإنما أودع قلبى عندك وإذا كنت أسأل الله أن أعود سالما فلكى أراك يا غاية المنى وحظ الحياة لحبيبك.

المعهود

أقبل وجناتك وأسألك أن تبلغى والدتك المصونة شعائر الاحترام والإجلال والله أسأل أن يمتعك بتمام الصحة والعافية وأن يجعلنى دائما سعيدا بذكراك.

٥٣

روحى صفصف

أبوسك يا روحى فى خدك وفى ثغرك وفى نهدك
وأقبلك ملايين الملايين يا عصفورتى الجميلة .

اللى يحب

معها ورقتان بعشرين.

٥٤

أخى الأعز الأوحد

وافانى كتابك الذى كنت أنتظره من يومين فقبلته ببصرى وقلبى لأنى أعرف مقدار ما يكن قلبك الطاهر لى من الحب والصفاء وما يكون عندك من القلق فى مثل هذا الحال. ولكن أرجوك كل الرجاء أن تخفف عنك هذا العناء واعلم أنك على كل حال لى والفرق كله فى الزمن يطول أو يقصر.

أما ذلك العظيم الذى أشرت إليه وهو يعزنى كابنه فأمره فى مسألتنا بالعكس لأنه منذ أشهر خاطبنى فى هذا الشأن وقال كيف تصاهر رجلا صفاته كذا وكذا وأخلاقه الشخصية لا تطاق. وبلغنى أنك تسهر عنده كثيرا وهو فى سهراته هزء وسخرية. فأنا سكت على الكلام الأول ونفيت له تهمة السهر معه وقلت نعم إنى أزوره فى بعض الأحيان ردا لزيارته ولكنه حال وجودى لا يخرج عن دائرة الكمال وأمثال هذا الكلام فلو قلت له إنى أريد مصاهرته وهو يمتنع لشن على الغارة فدعينا من هذه المعطلة .

نحن نصبر ونستعمل معه تارة اللين وتارة العنف، وأنا الآن على ما أشرت إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا. وأقبل وجناتك أضعاف تسليماتك وأسلم على والدتك المصونة كثيرا. وأنا اليوم مسافر للإسكندرية وبعد يومين أعود إن شاء الله والسلام.

أخوك

٥٥

حبيبتى صفيتى روحى

وصلنى كتابك الشريف الكريم اللطيف وأنا قد ارتحت جدا من جواب الشيخ لأن قاعدة عملنا ستبنى على ذلك الآن. وأخبرك يا حبيبة روحى أننى مطمئن وصابر ما دمت مطمئنة وصابرة ونفسى أسيرة نفسك وروحى التى أشعر بها هى أنت.

كلى مطمئنة واشربى مطمئنة ونامى مطمئنة. يصل اطمئنانك فى كل هذا إلى روحى أنت وأنت أنا.

(على)

٥٦

فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٠١[١]

سيدتى العزيزة

ما أكثر الخطأ إذا كان الحكم يأتى من وراء حجاب. تظنين أنك المعذبة الخاطر وأنا المرتاح، وأنك القلقة وأنا المطمئن، وأنك المشغولة وأنا الخلى، وأنك فى وسط الأكدار والهموم وأنا فى وسيع الصفاء والسرور. كلا ثم كلا. إنك مخطئة أعظم الخطأ وسالبة لحقوق الإنسانية والمروءة منى غدرا وظلما.

فأنا عندى أضعاف ما عندك شغل شاغل، بل أضعاف ما هو شاغلك بى، وأكدار لا تحيط بها أسوار الدنيا بأسرها وحيرة من أمر هذا الرجل الغريب فى أطواره لا يكاد أحد

(١) تكشف هذه الرسالة المؤرخة، أن صفية ووالدتها كانت راغبتين فى إتمام الزواج. وأن صفية كانت تقترح بعد أن بدأ الوالد فى وضع العقبات أن يذهبا إلى عمتها ويتما الزواج هناك بعيدا عن الوالد وأن على يوسف هو والذى رفض لأنه كان يعلم حجم المشاكل التى ستحجم ونصحها بالصبر. النتيجة أن على يوسف وجد نفسه فى النهاية مضطرا لإتمام الزواج بعيدا عن والدها.

أما تاريخ الرسالة فيعود إلى سنة ١٩٠١، بعد عام من بدء العلاقة العاطفية بين الشيخ على وصفية، وقد انتظرا وصبرا ثلاث سنوات أخرى.

تذكر هذه الرسالة بوضوح قصة خطبة "حفيظة" شقيقة صفية إلى شقيقه السيد توفيق البكرى والمشاكل التى أحدثها السادات أيضا فى هذه الخطبة.

يهتدى إلى ساحلها. نعم إن لوالدتك الحق فى أن تقول إنى سبب كثير من أتعابكم لأنكم علقتم الأمل علىّ. ولكن ليس لك ولا لها الحق فى مؤاخذتى لأننى مثلكم مشغول متعوب البال أفكر دائما فيكم وأحار كيف أصل إلى النتيجة التى تريحنا معاً ولا يكون من ورائها ما يمس شرفنا معا.

إننى قلبت المسألة من جميع وجوهها فرأيت من الخطأ الفاضح أن نعتمد على الطريقة التى ترونها الملجأ الأخير وهى الالتجاء لمنزل عمتكم وحسم المسألة بواسطتها لأن من وراء هذه النتيجة ضوضاء ورجة لا نشعر بدويها الآن، لأننا لم نسمع دويها ولكن العاقل يجب عليه أن لا ينظر إلى الحرج الذى هو فيه فقط ليتخلص بأى وسيلة كانت. فبعض الوسائل يؤدى إلى حرج أضعاف ما يكون فيه الإنسان. ولذلك قلت انتظروا واصبروا كما أنا منتظر وصابر وكلانا يحمل قسما من أتعاب الحالة الحاضرة. ربما تقولون إن الوسط الذى أنتم فيه ردىء وتتمنون الخلاص منه بأى حالة كانت لأنه لا يوجد وسط أردأ منه، وهذا يكون نصيبكم الحالى من الهموم والأكدار أضعاف نفسى. ولكنى أقول إن الشواغل التى يتحملها قلبى المتعوب من أجلكم ربما كانت أضعاف كراهيتكم لرؤية وجه شخص سيئ المعاملة والهموم التى أنا فيها مع علم عائلتى بنيتى وكل أحمالى لا يمكن أن تقدر ويتبع ذلك من التنافر ليلا ونهارا داخل البيت ما يمس بحالتى الصحية وأشغالى الكثيرة. فاصبروا كما أنا صابر. ظننتم أننى أعبث أو أرتكب خطأ فى مساعدة البكرى على خطبته لحفيظة ولكنى أعتقد أنها ربما

كانت من أنفع الوسائل، لأن السجن الذى مرت٦عليه الأعوام مقفلا محكما إذا كسر بابه وخرج بعض من فيه كان ذلك تمهيدا لخروج البقية . وإذا حصل شقاق بين السيدين (كما أتخيل الآن) فلابد أن البكرى يشن الغارة فى كل مكان على والدكم وإذا ظهرت فى الوجود حادثة جديدة من هذا القبيل كالذى حصل على عهد عثمان كان لكم الحق أن تخرجوا وتلتجئوا إلى عمتكم وكان لمثلى أن يقدم على عمل.

السيد البكرى دفع ٢٥٠ جنيها مهرا لحفيظة وهو يحاول الآن أن يعين الموعد الأقرب لعقد الكتاب ووالدكم يتنحى عن تعيين الموعد الأقرب وقد لا يمضى زمن حتى تظهر النتيجة فتتخذ الطريق الموافق لنا .

وأقبل وجناتكم ويد حضرة الوالدة. أودعك وداع المحب لحبيبه الآن لأنى مسافر غدا للسودان وسأرجع بعد عشرين يوما إن شاء الله. فليدع لى قلبك الطاهر ولتؤمن والدتك المحترمة وليتصافح القلبان دائما والسلام.

(أخوك)

أشعار
الشيخ على يوسف
إلى
صفية السادات



إذا كــان قلبك لـــى ســـابقا

بفـــضل الـــمودة مـــن أول

فقلبى لـه السبق فــى الاحتراق

بنار الغــرام عــلى مــا بــلى

فـــإن شـئت أن تشعلى نــاره

دوامـــا فــذلك شأن الـــخلى

وإلا فــرحماك فــضل عــلى

غـــريم غـــرام يسمى (علـى)

* * *

أرسلت لى مـع الرسول شرابـا

أى بأس فـى أن أراه مـــداما

إن يكن مـــن "صفية" فحـلال

ليس كــــل المدام يهدى حراما

* * *

وأتحفتنى بعاشوراء قد جمعت

فى حشوها كل أنــواع الملذاتِ

لكن لـذة مثلى أن أدوم علـى

ذكرى صفية حلت روحها ذاتى



رسائلها إليه



١

عزيزى على يوسف

بعد السلام . جاءنا المخلول[١]. وأظن أنك الموعز له ليخبر السيد أن عندك علم بالجواب وقد سمعت أن خليل حضر لطرفك وأيضا ترتضى كلمة وبلغنى أن الجناب أخذ خبر هل صحيح، أرسل المنشاوى يقول عنده صندوق داخله أشياء فهل جنابك تريد ترسلهم لى بغير علم السيد أو كيف فدنى ولماذا لم تخبرنى فى خطابك.

السيد تفرج على الأشياء وضحك لما قرأ المؤيد وقال شيئ لطيف ولما وضعهم أمامه قال للبنت نادى ستك فمشت لطلع، فقال لها ثانى تعالى ثم وضعهم داخل الدولاب ووضع المبلغ مع فلوسه ، وقد علمت مقدار المبلغ وما كنت أحسب نفسى أنى رخيصة عندك بذلك المقدار كما أن أكثر العالم علمت بمقداره.

المسلوب مجتهد فى ذمك عند السيد. ماذا نقل لك المخلول عن السيد وما هى الأخبار الموجودة عندك.

معلوم

(١) المخلول أحد أفراد الأسرة، وكان الشيخ على وصفية يكرهانه.

٢

حبيب صفصف

وصل كتاب أوفى محب لأوفى محبوبة ، وكيف أخالف أمر طيف خيالك فى اليقظة والمنام وإن كان بهازل، نعم أضنى القلب ولكن أردت عدم المخالفة لأكون مطيعة لك ولخيالك يقظة ومناما. فهل تحب يكون بخلاف ذلك.

حبيبى لو كان طيف خيالك طلب منى قبلا ما امتنعت. فالحق عليه ولكن ربما انكسف منى فقل له لا ينكسف ثانيا.

أرسل القبل التى طلبتهم وإنى إرى أنهم قليلا جدا، فالألف قبلة طلبك فقط، كنت أحب أعطيك عددا لا يحصى ولكن مدام طلبك ذلك القدر فلا أعطى زيادة. وأسلم على صاحب الخيال الكسوف ملايين وكذا قبلا إكراما لصاحبه.

صفصوف
عليك

متى حضر ذلك الباشا يوم الخميس ما خرج الرجل من المنزل قط. ومع ذلك حضور هؤلاء لا ينفع ولا يفيد وشوف إزاى أيضا. لكن خليل وأخيه ملاعين جدا وقوله لى خوفا منى فهم يقينا يبغضوك فى الباطن.

....[1] الوالـــد

معكم فى العربة بعد خروجكم من عنده، فقال والله ما قاله حاجة أبدا لكن هو يكذب علينا. وفى النهاية الوالدة بتسلم عليك كثيرا كما أن محرر هذا السطور بتسلم سلاما كثيرا صباحا مساء ودمتم .

أخوكم
المحب

(١) سطر مفقود.

٣

الأعز الأوحد على يوسف

بعد السلام. لم أراك يوم الجمعة فى الجزيرة ومع ذلك كان موجود سبعة وما تركت جه هناك إلا وروحتها. وأيضا مررنا من شوارع كثيرة فى الأزبكية لعلى أحظى بنظرة لكن عربتكم ما كانت موجودة بالعربخانة لأن قبل توجهنا إلى الجزيرة زورنا منزلا مقابل للعربخانة . وقد مررنا على المنزلك[1] ونحن رجعين فإن شاء الله يكون مبارك وما كان معى غير الوالدة. وقد ضحكت لما نظرت السور مهدوم. وقد قابلت فى الجزيرة زوجة المخلول. أسألك هل زوجة سامح الحكيم لما تزور منزلكم تكلمك أو أنت لما تزورهم تقابلك لأن سمعت أن حضرتك تحبها (قلبك سايع كام واحدة) سمعت أن قرينتك ستوضع بعد بضع شهور فإن كانت بنت سميها على اسمى.

فأستحسن منك أن كل زيارة يزورها الوالد لك تكلمه فى الموضوع. فقد أخبرنى المخلول خليل أنك تكلمت مع السيد يوم كانوا.

---

(١) المقصود : منزلك.

٤

إلى مالك العصفورة المتصرف فيها والحاكم عليها

تقول العصفورة الطائعة الخاضعة لمالكها وسلطانها الآخذ لبها الممتزج بدمها التى هى فى مملكته ترتع فى روضة الفردوس حباً وهياما بهذا الهوى والجوى معجبة مفتخرة به وبوفائها وإخلاصها وطاعتها لحامل أشرف عرش هى عليه فى أطهر بيت طاهرا كالبيت الحرام المقدس.

أيها الملك الجليل قد تلقيت كتابك كما تلقت هاجر ماء زمزم بعد ظمأ كاد يهلكها، ففاض على هذا الكتاب كما يفيض على كل يوم فى نفحات الحب والشرف ما يجعلنى ألهج بذكرك وأسبحك كتسبيح الملائكة للمولى عز وجل.

سيدى إننى فى غاية الشكر والممنونية لقبولك منى العروس التى أتقرب إليك بها لأحوز شرفا ساميا واسما عالياً. نعم عزيزى قلت لا أحكم عليها متى أراها وطلبت منك تعرفها لى فبخلت علىّ وطلبت منى أن أصفها لروحى. كيف ذلك بدون أن تعلمنى عن اسمها. ألم يكون لها اسم ومكان تدلنى عليه ليكون له وجه فى الوصف. ولكن أقول على وجه التقريب لحين رؤيتى فيها حسبت أنها بالغة عندك لذلك الحد لابد هى الأخرى عندها كما عندك.

٥

شقيق روحى على يوسف

أخذت مكتوبك العزيز وزال به بعض جيوش الكروب سروراً جداً بإنعام الشاه عليك إنعام حل موضعه ولا زلتم منبع الترقى على مدى الدهور والأعوام. وقد حقق منامى المولا سبحانه وتعالى، رأيت ليلة الخميس حلم غريب الشكل فصبحت أقصه على الوالدة وبعد ساعة قرأت بجريدة المقطم فى التلغرافات ذلك النبأ المفرح عندى. ثم لما بلغ الطفل المخلول بزعالى[1] "حضر أول مرة تغدا عندنا وقال له لا يلزم ننزعك بنتك ولا ولا، ولازم تصالحها بحضرتى. فقال حضرة الوالد مرة أخرى. وبعد يومين حضر ثانيا فى العصر فخرج له فى القاعة الكبيرة وهناك تركه وجاء المجنون فى المحل الداخلى ورجانى من فوق وكنت أردت أمتنع فافتكرت مقابلتى به أوفق لما بعد. نزلت وتكلمنا ولا أقدر أشرح لك جميع الكلام لأنى نسيته من كثرة كدرى وأفكارى .

أعلم أنه ليس بمهم فقط متذكرة جملة قالها ضمن كلامه (أنا غرضى تشرفينا لأنى أحب معك وأعلمك كلاما كثيرا يكون فيه نصيحة لك فأجابته. بأقواله وضحكت يا فندم أنت تتكلم مرة أمامك. فهل أنا آخذ منك أم أنت تأخذ منى ، أنت تتكلم كلاما أكبر منك ولا تفهم ما تقول. وهميت بالقيام فقال

(١) بزعلى.

أرجوك لا تكسفينى واقبلى رجانى. وصار يتذلل أقبل أياديك . انتظرى هنا وادعى السيد وقابلوا بعض قلت لا أنتظر أبدا وهو أيضا نفسه كبيرة لا يرضى يدخل معكم وبالاختصار كان غير راضى وبرح المخلول المنزل صفرا مكسوفا ، وربما يخبرك. فأرجوك لا تسأله ولا تقضى له أمرا ما. ثم بعد يومين دخلت أم أخوتى اسمه عنده على حسب العادة كل يوم فقال لها أنت غبتى اليوم ليه. فأجابته ما غبت وإجمالا هو كلمة ، وهى كلمة وكانت خناقة وقام بضربها وفضل يجرى وراها فى الداخل إلى الدور الثانى وهناك منعته ابنتها لكن مهما تمنعه ضربها وبالصدفة كان موجود عندهم ضيوف. بالاختصار كانت حادثة كبيرة لو شرحتها لملأت ثلاث فروخ ورق. وأرسل السيد إسماعيل منصور لهم يقول إذا كنتم تخرجوا لا يمنعكم، بل لو كنتم تريدوا لا يمنعكم، بل لو كنتم تريدوا السفر إلى الآستانة يرسلكم، وهى أرسلت له كلام كثير فيه فائدة لكن الرسول حمار ما قال ولا كلمة منه وهو أنهم لا يقيموا بالمنزل غرضهم الخروج فأرسله ثانيا إلى أى محل يحبوّ يتوجهوا، فأحبوه الجارية لما تحب تخرج من بيت سيدها لا تقول على المحل المتوجه إليه.

٦

حضرة المحترم

بعد السلام. الآن أخبرك أن البنت الخادمة لا تريد تمكس وأنا أيضا زعلانة منها جدا فقط ليس كنت رضية أخبرك فلأن ترسل عبد الله أفندى لمنزل الظاهر لأجل متوجهة لتأخذ ملبسها ثم اليوم تجعله يتوجه عند المخدمة الإفرنجية لأجل واحدة غيرها ترسلها لى اليوم ولكن تكون "أونسون" أو طليانية . وهى أخذت منى مهيتها ريال ونصف وأعطيها على حساب ٤٠ فرنك وهى أمس قالت أريد أروح عند أختها، ولم تحضر إلى الآن ولا تأخذ منى الإذن وهى تكذب كثيرا وأنا لا أحب الخادمة الكذابة. وأيضا أولاد الشيخ زعلانين منها وأنا لا أحب أحدا يزعل من خادمتى.

ومنى إليك السلام ودمتم.

صفية

٧

عزيزى الأعز الأوفى[١]

كنت أود أقول لك يألف صباح الخير شفاها لا تحريرا فى الصباح اللطيف. وكنت أتمنى من صميم القلبان المتنجيان نقبل بعضا صباحا كما كنا نقبل فى الأيام الذى مرت كالخيال. ورضا الآن نناجى بعض بقبلات على الورق وحكم علينا الله بالتفريق بعد أن تلقينا بعد عذاب وتعب ودواخ، ألم يرحمنا الذى خلقنا لبعض وخلق القلبان مع ووضع المحبة فيهم ، ألم ينظر إلينا الله بعدله وشفقته، القوى على كل قوى ويجمعنا فى أقرب الدقائق، مفوضة الأمر له سبحانه وتعالى لابد أنه يشفق ويرحم بالضعفاء.

أسألك بحبى لك وحبك لى هل أنت كنت قلقان فى الليل ونمت فى أى ساعة ، لأنى أنا أمس كنت شديدة القلق أكثر من كل ليلة وقد جاءنى الألم فى رأسى وما زار الكرى جفنى إلا قرب طلوع الفجر ومع ذلك قمت قبل طلوع الشمس ومررت هذا لحبيبى .

---

(١) قد تبدو هذه الرسالة ومن التوقيع أنها من الشيخ على إلى صفية ، ولكن الواقع أنها مكتوبة بخط صفية، وهامشها يحمل توقيع "صفية"، وأسلوبها ليس أسلوب على يوسف.

سلام ملايين لا تعد وتحصى

عليك

سأرسل لك جوابا آخر ردّ على خطاب أمس فى الأوان مع الرسول.

المفهوم
صفية

٨

عزيزى المكرم على يوسف

حظيت بكتابك الكريم وأهنيك ثانيا بالعيد مع غرر التهانى والتبريك بإنعام أمير المؤمنين عليك بالنشان العثمانى الثانى فقد سرنى ذلك سرورا عظيما لا يقدر. وإنى ألومك لأنك لم تخبرنى فى خطابك . وبعد قد استحسنت أفعالك مع الرجل . كان الفرح خلفه طالع جدا ففهمت لابد يكون أحدا كلمه بشأنك وكنت أضحك عليه سرا. وأما تشريف البرنسسات لا يفيد شيئ غير بتسمعوا منه حاضر إن شاء الله، وذلك حالة لزوم أحسن طريقة هى الذى اتفقت عليها مع الجناب العالى وفهم جنابه يقول له ضمن كلامه معه لو أبديت لى عذرا، لا أقبله ووإلخ. لربما بعد رجوعه من عنده يكتب لجنابه جواب يحتج فيه بأعذار فارغة لأنه رجل كما تعرف مراوغ . قد تكدر جداً لعدم دخولك يوم العيد وقال للخادم الذى ناولته الكرت جاء ولم يدخل فقال له قلت لحضرته سيدنا موجود فقال شوف يا عربجى قال السيد ميضرش معلهش وكررها مرتين وظهر عليه الزعل وسكت مليا وليلتها قال للمغيرة جاء فلان ولم يدخل وأعطى كرت فأنا أرسل له مثلها مع الضوى فقال المغيرية لا يصح ذلك هل هو أرسل لك مع خادمه أو جاء بنفسه فمثل حضوره سيدنا يمر عليه ويترك مثلها. ومع ذلك ليس من الصواب تزعل مع رجل مثله لأنه هو ممكن يزعلنا فقال السيد سأفعل كده. فهل حضر عندك. أم لا.. كذا أمى تهنيك بالنشان وبتسلم عليك كثيرا ومنى إليك ملايين الملايين من السلام.

صفيتك

٩

عزيزى على يوسف

كنت أحب أولا أحسب حساب البربرى وبعد أسمح لـك بالمقابلة لكن من باب الشفقة عليك وإنى قدرة أقبلك قـد سـمحت لك لكن لم أسمح لك فى كلامك السالف فاتفق مـع حسـين علـى الليلة التى تحب تحضر فيها وهو يفهمك كيفية حضورك وعلـى الساعة الذى تجيئ فيها.

لازم يكن معك الخاتم الذى أخبرتنى به وإلا على كيفك وأتعبك ولا أمكنك منى، بل ولا أكلمـك وأنـت المخـير. اقتضـى رأى السادات أن آخذ درس عربى وفرنساوى ثانى مع معلمـى السابق وأخبرك لما تجيئ غدا اسمه.

وسأتعلم معه درس فى حساب البربرى لأن يظهر إنـك متعلق فعار على لعدم معرفتى تلك الحساب لنكون مثل بعـض. مش كيده ولا ايه يا على والسلام ختام .

صفية

١٠

عزيزى الأعز الأوحد على يوسف

بعد إهداء جزيل السلام. من أعلم المخلول بتلك الجواب يظهر أنك أنت. لا تقول للوالد على المصاغ ولا تبدى له أقل إشارة لربما يدرك أن لك علم أو دخل فى الجواب لكن لا تتكر منى إن كنت أخبرته ليلة حضورك لأن بلغنى كنت تتكلم مع الوالد سرا، أخبرنى على أى أمر ليلة وجودنا بمنزل المخلول قالت قرينته أمام الوالدة مصاغى بعته جميعه لربما يتصل للوالد كلام فأجابتها ولما تقولى ذلك نحن مالنا دخل فى حاجتك وسكتت.

رأيت العزبة[١] على رأس بنت أخيه.

عزيزى.. مرسى[٢] الحلق الذى أشرت عند فلمنك وطاويك ولا يخف على ذلك الشكل حلاقين (حلقين) برلنتى دوارات كفية.

هناك نزل بجانب الشبابيك مع واحدة. فما وجدتك فتأسفت جداً فلمحنى المخلول من القزاز فجاء وقال لى الياور بتاعك كان هنا قليلى حبك له شوية، قلت وهو نزل عليه وصى بحضورى جاء ليزورك فقال كل مقابلة معك يأخذ بها خبر الولد الخادم بيقلق. قلت فى أين يراه فضحكت إنك مخلول

---

(١) هكذا جاء فى الأصل ولعل العزبة معنى مفهوم ذو دلالة خاصة لديهما فقط.

(٢) هى كلمة Merce بالفرنسية.

وتركت واقف بغير مـا أسلم عليـه . وأنـت السـببْ فـى مقابلتـه معى لأن كنت قويا لا أقابله حتى لو كان أرسل مع قرينته .

أرجوك لا تذكرنى له دائما ولا تسـأله قابلتها أم لا أنـا أخبرك ، لما تسأله معناها غير واثق بى أو بما أقول.

إن كنـت تحبنـى وحبيبتـك صحيـح ولا تحـب تزعلنـــى وتحافظ على إحساساتى لا تزور منزل البابلى مطلقا أبدا أبـدا. ضرورى تروح عنده أو فى ضمن واجباتك زيارته.

عزيـزى قرينتـه وبناتـه يصفـوك بـالخلل والخـرف والجنون ووجهك ردئ (لا تآخذنى) فأنا والوالدة لا نقبل نسـمع فى وجهنا عليك كلام فى ذلك . إن كنت أنت تقبـل علـى نفسـك خيرا، أما نحن لا .. لا .. لا.

نعم المخلول يكلمنى عليك لكـن فـى جهـة ملنـا لبعض وكلامه من باب الغيرة . بأمره وصفك بشيئ ردىء أمامى ولا وصل لى عنه كنت والله شتمتنى. الوالدة بتسلم عليك كثير ومنى لك السلام عد وزن مثاقيل الجبال ودمتم

صفيتك

١١

عزيزى الأمجد على يوسف

أخذت كتابك فكان أكرم وارد وأعز وافد. وحيث أن سفرك المبارك هذا العام لإتمام تلك المهمة فلا يحتاج الأمر لشهور طوال لأن إقامة الجناب ليست طويلة فى لندرة. فبعد إتمامها لماذا تقيم . فتلك الإقامة عبساً منك وهل متوجه أيضا إلى الآستانة أم لا.

أخبرك حضر أمس لعند السيد الشيخ محمد راضى فكلمه السيد بشأن المسألة وإن يريد يرجع الأشياء لصاحبها وو.. إلخ، فأجابه الشيخ ما هو صالح لك ومدحك للغاية وخصص السيد فى تأخره ومنعه عن رد الأشياء الآن ومن ضمن كلامه الشيخ معه قال سمعت أنه سيطلبها منك مرة أخرى فإن لم تجبه يخبر الخديوى يطلبها منك. له فقال السيد إن قلت لفلان لا ما يمكنى أقول للجناب العالى لا وبالاختصار لم يزل السيد مصمم على رد ما عنده.

ثم إنى ألزمك كما أنك تلزم السيد الصغير يجيئ للسيد اليوم أو غدا يقول له عن لسانك الكلام الآتى فلان يقول إن كنت تريد ترد له الأشياء لا يأخذهم إلا على يد الجناب العالى فابقيهم عندك لحين عودتهم من أوربا تعطيهم له شرطا على يد الخديوى. ثم فهم المخلول يفسد حاله من تلقاء نفسه كل زواج بنت تعمل لك هتيكة وجرسة. والذى افتكره السيد يرد الأشياء فى غيبة الجناب فما أحسنها فكرة. ومنى لك ألف قبلة فى ألف سلام.

صفية

١٢

إلى مالك روحى وحامل عرشى

أيها الحبيب شرفنى كتابك الأنور ومطلع كما لك الأزهر المسطر بألفاظ أشهى من السلسبيل فانتعشت روحى كانتعاش آدم عند نزول الروح فى جسده وقال الحمد لله.

حبيبى وروحى نعم رأيت أمس فكرة وأتقدم لك بعروس جميلة لطيفة (وأنت تقول لى قلبك يعلم من تخطبين بك حاجة، ذلك دبوس فى قلبى إلخ) أنا ما فهمت من هى التى تعنيها بذلك الأوصاف والأقوال ومن هى خطيبة قلبك التى ستكون أسعد الخلق بك وأننى أحسدها على ذلك (يا ليتنى كنت أنا) فعرفنى عنها لا تقرب إليها وأخطبها لا ربح ذلك الربح ومن لا يرضى بأجرة مثل ذلك ولكن لا لا لا أعد ذلك الصفقتين قليلين جدا جدا جدا.

فى جانب تعبى فى الحصول عليها ولما تعرفنى عنها أقترح عليك أجرتى وحبذا لو قدرت تفى بها ولكن من إنصافى لك فى قاريتها عند تقديمى لك ذلك العروس المتناهى فى وصفها وأما أنا لا أفكر حتى أراها، ترى تستحق أم لا وهل الوصف فى محله أم من كثرة حبك فيها تراها كما ذكرت فى عينيك كما هى فى قلبك .

صفية

١٣

مولاى الأعز الأوحد

صباح الخير يا سيدى. أسأل عن صحتك يا غاية مطلبى وأرسل لك مرتبك الذى طلبته منى كل لحظة لا كل صباح، فخذ من صفية كيف تشأ فهى ملك لك تصرف كيفما تحب لا معارض لك فيها.

عزيزى أنا لا أقول إنى أحب وأرحم وأحسن وأشفق وصاحبة وفاء وعهد وميثاق بملايين من المراحل قد هؤلاء الثلاثة التى ذكرتهم لى وما واحدة منهم أطاعت محبها وحبيبها مثلى وقد قرأت قصصهم فى الكتب. ما احترامها يقدر يتجاسر أو يستطيع أو أو ... إلخ يتشرفك حتى ولو اجتمع أهل السموات والأرض ما يقدروا إلا إذا كنت أنت تشرف نفسك ونفسى منى. ولكن كيف ذلك تسمح نفسك إنى أهلك يا على أنا الحارسة الأمينة لا أسمح لك ولا لغيرك مهما كان أموت نفسى ولا ذلك.

لا يلام أخبرك أن أصحابى زرونى ولابد أنت توجهت عندهم تسألهم على وأنى أرسل لك فى الختام التحايا والشوق والسلام كما يشاء القلبان.

صفية

١٤

حضرة العزيز

كنت وعدتكم أمس برد الجواب الأول. أولا عدم المكاتبة ليس بباب النسو والهجران إنما عدم فضى وأنتم تعرفون . وثانيا كلام والدى هو حق ليس فيه كذب وأنتم أدرى ولا أقدر أشرح له كلامكم ولا إن إشارة خفيفة أن الوافد أتى ليفتكر شينا بيننا فتكون منكم أحسن، وأما المسائلة (المسألة) المفهومة لا نكن إلا بعد ما ترسلها مع عبد الرحمن أفندى.

بعض كلام من الذى أخبرك به والدى وبعض كلام من الذى أخبرنى به المفهوم وبذلك يمكن تقدر تتكلم بها بواسطة عبد الرحمن أفندى فى المسألة ولا تخبرها بشيئ إلا بعد متشوف كلامها يكون بأى سيغة "صيغة" وأما المقابلة ما عندى وقت لأن والدى يركب فى الغروب. فكيف تكن والجواب وصل وليس وقت لنتكلم عليه الآن

مفهوم

١٥

عزيزى على يوسف

أولا محبك يهنيك بحلول عيداً سعيداً وعمراً مديداً وإنجاب قريبا. بحبى عندك تخبرنى من قال لك على تلك الجملة ومع ذلك لا أصدق أقوال السيد وقوله لك حاضر فيما تركه ، ما علم قط من الخطاب أنا كنت حريصة وأعطته للولد نقله لا سألته من الكاتب له، وبعد أخذت الصورة الذى بخطك أما تلك الحاشية لا تفتكر فيها، ما لها أهمية.

عندى علم أن أورى الخطاب لخليل وأخيه ومنى لك ألف سلام.

أخوكم ومحبكم

بعد خروجك أمس قال السيد لخليل من حضر ليخبرنى أن تسأل مصطفى صادق، فوجد المسألة تمام وأن البكرى أخذ حجتين خفاف بدل الذى باعه وأنا مصدق قوله فقال خليل نعم ظاهر على البكرى لكن يحاول.

صفية

١٦

ما هذا الكلام وأما تعتذر ، فأنا أنتظركم يوم الخميس وما تحضر وتنكس الوعد وكمان أرسلت لكم مع مرسي لتزورونا يوم الثلاث تقول عندى شغل فيوم الأربعاء وما هذا الشغل، ومع ذلك أنا غير موجودة بالمنزل هذا اليوم فإذا أحببتم تزورنا يكون يوم الثلاث. وهذه آخر فرصة ولا يمكن آخر وعلى هواك تعرف شغلك على رأى الدور، فأنت بخير والسلام وختام.

مفهوم
صفية

١٧

عزيزى على يوسف

تشرفت بعزيز كتابك وقد فهمت ما شرحته وأنا ما أسلم قلبى للاطمئنان مقدما الآن وانى أؤكد عليك جدا لا تثق بأقوال زيد أو بأخبار عمرو . لابد أنك زرت أصحابى أمس وماذا قالت لك مريانة.

أمس ليلا بين الساعة الثانية والثلاثة بعد نصف كدت أقوم منصرفة فى السرير وذلك بعد أن نمت الساعة الحادى عشرة تقريبا تنبهت فى ذلك الميعاد وأنا مفتحة عيناى. تصور لى أنك بجانبى تقبلنى وتقول حبيبتى حياتى. إلى هنا وما قدرت أمسك القلم تركته ووضعت المنديل على عيناى ونكفيت على الطربيزة أبكى وكان صدى صوتك اللين اللطيف يصل لأذنى فتنبهت لنفسى فما وجدت إلا أنا لوحدى، فخفت وهميت للقيام ولكن تجلدت وما وجدت شيئ يفرج على قلبى إلا البكاء وقد ظللت لطلوع الفجر وأنا أبكى وانقلب على جنبى وما أقول إلا ربنا يعوض صبرى خيراً.

أخبرنى ماذا سمعت عن القضية بعد أن كتبت لى أمس.

لما يحضر عزب العرب غدا (إذا كان يحضر) يقول أولا أريد أتقابل مع الست، فلما أجيئ أكلمه يقول لى القضية محتاجة أن توكلى البك الفلانى لأن كذا وكيت. ولا يظهر لأحد أنى عندى علم بذلك. وأنا ستأجاهله وأساله لماذا الآن. لا أحب أن أحد يشعر أنى عندى علم بذلك. ومنى إليك ملايين القبل، قبل الليل الذى تصورتها والسلام ملايين.

صفية

١٨

عزيزى على يوسف

بعد التحية والسلام. بماذا أخبرك المخلول عن السيد وما هى أفكاره وأين تفهمه لك . لو كان الجناب العالى يرسل للسيد جواب يهنه بعد لا يقدر يفعل شينا هل ممكنك . ماذا ترى ولكن أعرف بالتحقيق ممكنك ذلك فقط أنت.... ومع ذلك أنت المخير. بلغنى أنك مسافر صحيح. رأيت الأشياء والطفهم وأخفهم المؤيد. المسلوب أوصل لك كلام من عند الوالد.

رأيت العمارة يوم الإثنين وكانت عربتك أمام منزل حماده بعد الغروب وأرجوك تفدنى عن أمر أفكارك والسلام ختام.

مفهوم

١٩

عزيزى على يوسف

أهنيك أولا بقدومك بالسلامة من الثغر الإسكندرى. وأمس حررت لك خطابا بالبوسطة باسمك لمصر فهل وصل . ثم قرأت فى مقطم أمس أن الجناب العالى سيسافر لأوروبا بين ٨ و١٢ يونيو وكنت أريد أن تحسموا المسألة قبل سفره لأجل لو تحرك الرجل يكون أمامنا جنابه وهل حقيقى قرى المقطم أم لا.

أمس خرجت للعباسية وكنت آمل النفس برؤيتك فخاب أمالها ولم يسمح الزمان لها لتراك، وقد دخلنا خيمة الصغير المعدة للحريم لأن زوجته وأمه بها ولم نمكث إلا قليلاً جدا ولم أر الصغير إلا وهو جالس فى الصوان وكنت واسمة فقط.

إنى أذكر لك كل مرة أن ليلة ما توجهنا لمنزل الصغير كان الرجل ليلتها سهر فى منزل فم الخليج مع... ... وكل بضعة أيام يسهر هناك. ماذا عندك من الأخبار الأخيرة مع الجناب.

ومنى إليك الملايين من السلام والملايين من القبل ودمتم.

عليك









هذا الكتاب

اهتزت مصر فى صيف سنة ١٩٠٤ بزواج الشيخ على يوسف من صفية السادات فقد رفض والدها الشيخ عبد الخالق السادات الاعتراف بهذا الزواج، ورفع دعوى تفريق بينهما بحجة عدم كفاءة على يوسف لمصاهرته. وتحول الزواج إلى أزمة سياسية داخل مصر وخارجها، وبحثت هذه القضية بين القاهرة واستانبول ولندن، فقد كان على يوسف - رئيس تحرير المؤيد - صديقاً للخديوى عباس حلمى الثانى ومن المقربين إلى السلطان عبد الحميد وحاشيته وخصماً للاحتلال البريطانى. وقد وجد خصوم الخديوى القضية فرصة لإحراجه، لذا وقف الزعيم مصطفى كامل ضد على يوسف، وكذلك الشيخ محمد عبده.

يرصد الكتاب نشأة العلاقة بين الشيخ على وصفية منذ سنة ١٩٠١ وتطورها حتى الزواج، ويكشف الكتاب نصوص الرسائل العاطفية المتبادلة بين الحبيبين والزوجين فيما بعد. ظلت هذه الرسالة حبيسة لمائة عام، حتى أفرجت عنها السيدة بثينة على يوسف .

٦٨ رسالة غنية بتفاصيل هذه العلاقة وتفاصيل المجتمع المصرى عند قمته فى أوائل القرن العشرين.





ميريت
للنشر والمعلومات